الانواع الادبية والبلاغة

بقلم عدنان بن ذريل

* * *

الادب تعبير بواسطة مفردات اللغة ، واساليب القول ، في حدود نوع ادبي معين عن مكونات النفس الانسانية ، وتجربة الانسان ازاء العالم والمجتمع ، ينقلها الاديب الى الجمهور طاقات من الفن ، والجمال ، والتثقيف (١) ..

الادب تعبير ، اي افصاح فني ، من حيث ان التعبير الادبي متميز عن مجرد الافصاح بالنطق ، او اللغة . والفن صناعة الجمال ، والادب صناعة الجمال الادبي ، يسويها الاديب من ابداعه ، ومن تجربته ، وبفعل الموهبة عنده ، لبسط مكونات نفسه ، او نقل افكاره ..

ادوات الجمال الادبي ، التي تكون ملك يدي الاديب في صنعه له ، هي مفردات اللغة ، واساليب القول ، وايضا الانواع الادبية .. يعالجها معالجة في موضوع من موضوعات الحياة والمجتمع ، في حدود نوع ادبي معين ، يثقف بها جمهوره ، ويمتعه ويرفه عنه ..

ان الانواع الادبية اشكال للبناء الادبي تنحدر من نفس تجربة الاديب ، وانفعاله بموضوعه ، وتلبيته حاجة مجتمعه وجمهوره ، الى التعبير الادبي الفني والجميل ..

ذلك ان النوع الادبي في الشكل الادبي البنائي الذي يتخذه التعبير المدروس ، هو حصيلة حاجة الاديب الى ايصال افكاره ومشاعره الى الجمهور ، وحاجة المجتمع نفسه الى التعبير الادبي ، والفني الجميل ..

المسرحية تمثل على خشبة المسرح ، وتكون شعرا ، او نثرا ، او مزيجا منهما ، والرواية ، والقصة المطولة ، والقصة القصيرة تقرأ في الكتب ، او ايضا في المنتديات ، والقصيدة الشعرية تنشد انشادا ، او تنقلها الصحف والمجلات الى القارىء ، والمقالة تلبي حاجة التثقيف الاجتماعي الادبي ، وتستهلكها اليوم الصحافة الادبية في النقد الادبي ...

فكيف ندرس هذه الانواع الادبية الشعرية ، والنثرية ، المختلفة ، دراسة بلاغية ؟ . والى اي مدى يمكن للبلاغة دراسة الانواع الادبية ؟! .

يخيل للدارس المتفحص للوهلة الاولى ، وايضا لممارس النقد الادبي ، ان لا دخل للبلاغة في دراسة الانواع الادبية ... ان مجال البلاغة تبين الاساليب الادبية ، والجمال الادبي فيها ، والانواع الادبية اشكال بناء فني ادبي ...

ولذلك يبدو للوهلة الاولى ان تكريس النقد الادبي اليوم ، وتجنيده لدراسة الانواع الادبية هو الصواب الذي يمكن ان يعطي ثمرة ، من حيث ان النقد الادبي ، وعلى الخصوص في تمثله الحديث ، ومفاهيمه المستجدة يتسقط القول في الادب ، والاديب ، والتجربة الادبية ، والجمهور ، والذوق ، والاولى ان يأخذ على عاتقه بحث الانواع الادبية ، سواء المتوارثة ، كالقصيدة ، او القصص ، او المستحدثة كالمسرحية ، والمقالة ، وغيرها ...

في مقابل ذلك .. يذهب نفر من البلاغيين ودارسي البلاغة ، مثل الاستاذ احمد الشائب (٢) ، وتلاميذه في الجامعة المصرية والازهرية ، الى ان دراسة الانواع الادبية هي عمل بلاغي صميمي ، من حيث ان البلاغة في نظرهم يجب ان تقسم الى قسمين : القسم الاول : الاسلوب ويبحث فيه قضايا النظم الادبي ، والقسم الثاني : الانواع الادبية ، وتبحث فيه فنون الاشكال الادبية المختلفة في التعبير الادبي ، كالقصيدة ، والمقامة ، والرواية ، والقصة ، والمسرحية ، والمقالة ، وغيرها ..

والنقاش مستمر حقا في مشروعية دراسة الانواع الادبية ، واحقيتها ، أهي للنقد الادبي ، ام للبلاغة ، للناقد ، ام للبلاغي دارس الاسلوب ، والمناهج في ذلك (٣) .. انها ، في نظرنا ، للاثنين معا ، بمعنى ان لا تقتصر على واحد منهما ، النقد الادبي وحده ، او البلاغة وحدها ، وانما يتساند الطرفان ، ويتساعدان لجلاء حقيقة هذه الاشكال من بناء التعبير الادبي ، والفن الذي في تسويتها ، والجمال الذي لها ، او الجمال الذي يكسبه التعبير الادبي منها وغير ذلك ...

ان دراسة الاسلوب دراسة تركيبية ، تحليلية ، بدءا من التحليل الادبي ، جعل البلاغي اليوم ، ينظر الى الانواع الادبية ، نظرة جدية متأنية .. لانه وجد نفسه امام حياة جديدة ادبية ، وبلاغية ، ولغوية ايضا ، لا بد من التوفر لها ادبيا ، وبلاغيا ، ولغويا ..

وستظل الدراسة البلاغية سندا لدراسة الانواع الادبية ، ولن يقوى النقد الادبي على التفرد بدراسة هذه الانواع وحده ، وستظل للدراسة البلاغية قيمتها ، من حيث انها دراسة الجمال الادبي الذي للاساليب المختلفة التي للتعبير الادبي في هذه الانواع ، ولندلل بأمثلة ادبية ، شعرية ، ونثرية على ذلك ..

لنأخذ مسرحية «العباسة» لعدنان مردم بك ، و «العباسة أخت الرشيد» لعزيز اباظة :

ان عمل الدراسة البلاغية ازاء هذين الاثرين الشعريين المسرحيين الحديثين (٤) ، ليس التاريخ لهاتين المسرحيتين ، او اظهار ظروف تأليفهما .. وليس ايضا بسط موضوعاتهما ، او وصف بنائهما الشعري ، او شرح ابداع شخوصهما الابطال منهم ، او الشخوص الثانوية .. وليس ايضا مناقشتهما في افكارهما ، او نقدهما في

مجموعهما ، وغير لك مما هو موضوع الدراسة لادبية ، والنقدية ..

ان عملها ، بالاحرى هو تبين الصنعة الكتابية الادبية فيهما ، وتبين اسرار الصياغة الشعرية فيهما .. كيف تحاور المتحاورون في هذه المسرحية او تلك ؟ .. ما هي انواع الخطاب الادبي الشعري فيهما ؟! . ما هي مفردات الحديث، والقول في ذلك ؟!. وما هي التراكيب، والصور البيانية ؟! . من اين جزالة الاسلوب ، او حرارته ؟ .. من اين الحركة في الاداء الادبي ، من اين الروح فيه ؟! . لماذا الهم النفسي في هذا المشهد، ولماذا العرض التصويري في ذلك المشهد ؟! . وهلم جرا ..

كل هذه الزوايا الواسعة ، والحنايا الدقيقة من الدراسة الصميمية لهذين الاثرين الشعريين المسرحيين ، شعرهما ، أسلوبهما ، افكارهما ، عباراتهما .. هي موضوع الدراسة البلاغية ، والتي عادة لا تطولها يد النقد الادبي ، والدراسة الادبية ، أن لم ننبه باستمرار الى ما ظللنا نكرسه من ضرورة تكامل البلاغة ، والنقد الادبي ، ومساندة بعضهما لبعض ..

ان براعة التنسيق ، والملاءمة للموضوع ، وسلامة التعبير ، وحيوية التركيب ، ورشاقة الاخيلة ، وقوة الصياغة ، وجمال السبك .. كل ذلك على البلاغي دارس الاسلوب توضيحه في أصوله ، وتطبيقه ، ان تقاعس الناقد والدارس الادبي عن ذلك ، وبالفعل ، البلاغة اليوم تستقصي ذلك في دراسة الاسلوب ، وصور البيان ..

انها اليوم تخدم الانواع الادبية من حيث أنها توضح في دراسة الاسلوب ، ما هي خطة التعبير الادبي ، وكيف خطط الاديب لادائه الادبي ، ثم كيف نسق الافكار ، والعرض ، في اي من انواع الشعر والنثر التي يصطنعها .

الاسلوب آنئذ ، ليس النوع الادبي في تصميمه ، او بنائه ، واقسامه .. ولكنه السمة الشخصية التي طبع بها الاديب مسرحيته ، وتميزت بها هذه المسرحية عن المسرحية الاخرى ..

ان سمة « العباسة » لعدنان مردم بك ، بالفعل ، هي هذه الحدة الذكية ، الحدة النفسية في التركيز العجيب في السرد ، او في التحليل لابداع الابطال والشخوص الهامة في المسرحية ، وهي ترجع عنده الى الحرص الفني الادبي على وحدة العمل المسرحي في المسرحية ، والذي يلتزمه في كافة مسرحياته الشعرية .

والقاريء الدارس لهذا المسرحيات ، ومنها « العباسة » ، عندما يتصفحها ، ويسير في مشاهدها يشعر انه امام مسرح أصولي قوي ، بديع ، واصيل ، من نوع المسرح الكلاسي الفرنسي ، الذي لكورنيل ، وراسين، في ايثارهما وحدة العمل والموضوع ...

في حين سمة المسرحية الثانية ، « العباسة اخت الرشيد » ، لعزيز أباظة ، هو هذا الحشد ، لنقل القطاعي للمواقف ، والاحداث ، مع التصوير الجانبي الرديف للموضوع ، لجوانب اجتماعية تتعلق بالموضوع ، وتطوره.

هذا الحشد اثرت الوان سردية ووصفية منه عند شكسبير ، ثم احمد شوقي ، ويعتمده عزيز أباظة ، رغم انه يبطيء من الحركة التي للعمل المسرحي ، او يقلل من حدة التصوير لابداع الابطال في المسرحية ، .والشخوص الاخرى حولها ..

ان التنسيق في العرض الشعري في المشاهد ، ثم اسلوب الصياغة والتراكيب في الحوار على المسرح ، والحديث ، ثم العبارات الشعرية نفسها ، وما فيها من صور بيان تخضع كلها ، في المسرحيتين لاعتبارات كل من هذين التمثلين للتاليف المسرحي عند كل من الشاعرين ..

وابرز صورة لذلك ، التزام عدنان مردم بك استعمال مجزوء البحور في شتى حواراته ، وحديثه المسرحي ، وهو استعمال مطرد في مسرحياته كافة ، في حين تتنوع الاوزان الشعرية والبحور في مسرح عزيز اباظة ، وهو منوع ايضا ..

نجد الى جانب ذلك الجزالة في الصياغة الشعرية عند عدنان مردم بك ، وهي تلائم تقري العمل المسرحي الواحد ، والتحليل النفسي ، والخلقي .. في حين نجد السلاسة تطبع شعر عزيز اباظة في مسرحه ، وهي تلائم السرد فيه والحشد القطاعي، للمواقف والاحداث والاوصاف المختلفة ..

لناخذ الان مثلين آخرين من ادب الرواية الحديثة ، هما : رواية « باسمة بين الدموع » ، لعبدالسلام العجيلي ، ورواية « أصابعنا التي تحترق » ، لسهيل ادريس (٥) .

الرواية الاولى ، موضوعها علاقة غرام جنسي بين سياسي قديم وفاشل ، وبين مطلقة موسرة معذبة ، تنتهي بنزوحها عن البلد الى بلد اخر ، عندما تجد ان عشيقها اخذ يهيم باختها ..

والرواية الثانية رصد قطاعي نفسي واجتماعي لكفاح صاحب مجلة ، وهو وطني مخلص ، ويعمل مدرسا ، فيسخر دروسه للتربية الوطنية القويمة .. وفيها جانب كبير من خصوصيات حياة عائلته ، ترويها

(١) ـ هذا التعريف للادب لنا ، بسطناه في كتابنا الدراسة النفسية والبلاغة ، قيد الطبع ، مع شرح موجز ..

(٢) ـ هذا التمثل تجده في كتاب « الاسلوب » لاحمد الشائب ، وترجع الطبعة الاولى منه الى عام ١٩٣٦ ، كما نجده في الاطروحات البلاغية والنقدية التي يسوبها ، وينشرها تلاميذه الجامعيون والازهريون ...

(٣) ـ لعشرة اعوام خلت ، كان الدكتور الشيخ صبحي الصالح يحاضر في هذه الانواع الادبية ضمن محاضراته في البلاغة ، والاسلوب في الجامعة السورية ، واخذنا وقتها ذلك عليه ، فلم يرد ..

(٤) و (٥) ـ سبقت دراسة هذه الامثلة الادبية دراسة تحليلية ونقدية .. راجع ايضا « الادب المسرحي في سورية » لعدنان بن ذريل ، دمشق ١٩٦٥ ، و « ادب القصة في سورية » لعدنان بن ذريل ، دمشق ١٩٦٦ .

رماد

تذكار « همنغواي »

●

ماذا تقول الريـح من غصـون ؟
ما ترصف الافـلاك للعيـون ؟
هل صور الليـل عـروق الشمس ؟
أو جمـر الآن رمـاد الامس
لا شيء ، لا شيء فما الخلاص ؟
تفاهـة ، سئمت ، لا مناص !
يـدي عـلى الزنـاد ، هـذا حـد
حكاية المـاضي ، واصـداء الابـد

علي شلق

زوجتـه بنفسهـا ...

عادة ، الرواية كنوع ادبي له اصولـه في بنائـه واقسامه وفنيته ، تحوي ، او تستبيح استعمال عـدة اساليب للكتابة ، مثل السرد المباشر ، والتحليل المباشر ، او الوصف او البوح والحوار وهي تساعد على تكشف الاحداث .. او ايضا الرسائل ، او المذكرات ، او الحديث النفسي ، وهي تساعد على تطوير العمل الروائـي ، وغـيرهـا ...

الروايتان لا شك من الحيـاة والـى الحيـاة ، من المجتمع والى المجتمع ، ومن الروح ، واليها ، وهما ادب طليعي ناضج يثقف ، ويهذب ..

تصور « باسمة بين الدموع » الفساد ، والمباذل ، وتصور « اصابعنا التي تحترق » الكفاح عند مثقف وطني .. وقد استهلك صاحب كل منهما بالفعل عدة اساليب كتابية روائية ، منها على الخصوص المذكرات في «اصابعنا التي تحترق » ، والرسائل في « باسمة بين الدموع » ، ثم الحديث النفسي والحوار ..

ابرز نقـاط الاختـلاف بين الروايتـين ،هو ان : « باسمة بين الدموع » ، تقوم على حدث سردي ، واضح، وكبير ، هو فشل علاقة بين موسرين فاشلـين ، هـو يجمع حوله التحليلات والاوصاف المختلفة كافة ...

في حين أن « اصابعنا التي تحترق » تقـوم علـى وصف قطاعي متسلسل لكفاح مثقف وطني من حملـة الاقلام ، وهمومه بقضايا معاشه في الاساس ، وكافـة السرود الجزئية فيها مواقفية ، تؤكد صورة هذا المثقـف الوطنـي ...

ورغم ان المؤلفين يعنيان بتصوير ابداع ابطالهمـا ، ونفسياتهم ، الا ان الاختلاف بينهما ظاهر ، خاصة فـي الروايتـين ..

يظل عبد السلام العجيلي ، رغـم عنايتـه الفائقـة بوصف ابطاله ، وتحليل نفسياتهم ، يخضع وصفه وتحليله لسرده الذي يحتل عنده مكان الصدارة ، وهو سرد بالفعل اخاذ وبارع ، في حين يتحزب سهيل ادريس للقطاع اثـر القطاع في قضية ابطاله ، ويصور النفوس مندمجـة في مواقف القضية ، وعلى الخصوص المواقف الاجتماعيـة ، وليس الشخصية ، وكلا المؤلفين يقيس الحياة والمجتمع والنفوس حوله ..

والنتيجة في الروايتين ، أن السرد ظل مسـيطرا على العمل الروائي كله ، في « باسمة بين الدموع » ، ويظل المؤلف يدفعنا عن الحل فيه والخاتمـة الى أوصـاف وتحليلات توضح اسبابهما ومسبباتهما .. في حين فـي « اصابعنا التي تحترق » متعة المطالعة الادبية ، والدراسة الادبية ايضا ، في فضول التعرف الى احداث حياة هـذا المناضل المثقف صاحب المجلة ، في عمله ، او في بيتـه .. ولذلك حرص المؤلف على الصدق في الوصف ، والدقة في التحليل ، والبراءة في الشروح ، وتوفق الى حـد كبـير ...

كل ذلك اثر في تنسيق كـل مـن الروايتـين ، وعرضهما ، وسبكهما ، والصياغة فيهما .. عبد السلام العجيلي راح يسرد ، ويصـف ، ويحلـل ، ويسـتخدم اساليب الحوار ، والرسائل في جزالة تارة ، وسلاسـة تارة اخرى ، في حين سهيل ادريس لزم قضية بطلـه ، وهموم معاشه ، وعمله ، وبيته ، واكبر الظن ان تقسيم الرواية عنده الى قسمين ، يجري الاول منهما على لسان البطل ، ويجري القسم الثاني على لسان شريكة حياته ، وعمله ، هو لتسهيل رصد المواقف المختلفة في قضيـة هذا المناضل المثقف الوطني ...

وبذلك تميز الاسلوبان في الروايتين بعضهما عـن بعض ، في السبك ، والعبارة ، والتراكيب ، والمفردات ، وظهر عليهما طابع شخصية مؤلفيهما في التأليف والكتابة، اسلوب « باسمة بين الدموع » سلفي ان صح التعبير ، هو اسلوب الرواية السردية التحليلية ، جـزل وسلس ، واسلوب « اصابعنا التي تحترق » حياتي منوع ، فيـه سلاسة وبراءة ..

ان مجال الدراسة البلاغية اذن متميز عن مجـال الدراسة الادبية والنقدية .. انه يقـوم علـى النصوص الادبية ، ولا قوام له بدونها البتة ، ويستهدف اظهار فنية الادب في هذه النصوص ، اي ما به الادب ادب ، واسرار الجمال في الاسلوب ، في الفقرات ، في الجمـل ، فـي التراكيب ، والالفاظ ، وهو بذلك كله اساسـي لا غنى للنقد الادبي نفسه عنه ..

واما كيف نحصر الخصائص والصفات الاسلوبيـة التي لنوع ادبي واحد ، أو لاسلوب ادبي واحد ، فسيكون موضوع مقالتنا القادمة ، ان شاء الله ..

دمشق

عدنان بن ذريل

تشاؤم

بولس سلامة

* * *

على شرفة السبعين ودعت ماضيا   وشيعت لماح الرؤى والامانيا
فامسيت ارجو الله لا عون غيره   وقد غيض الليل البهيم رجائيا
وشق على أيوب أني شأوته   وخلفته في حومة الخطب ثانيا
بسبعة اعوام تقضى عذابه   وكل حياتي صفحة من عذابيا
رماني زماني بالنصال حديدة   فما تصدر الانبال الا دواميا
سواي بجنح الليل يطوي همومه   وسود ملماتي صبغن اللياليا
يقولون صبرا ، قلت صبرا عليكمو   فهلا عرفتم في الرزايا مكانيا
فما تستوي عين الحريق بناره   وعين الذي يرنو الى النار نائيا
يقولون : هذا العام ولى فربما   تعود الليالي الغائمات صواحيا
فقلت : بلوت الحظ عشرين حجة   فما زادت الايام الا شقائيا
تساورني الارزاء يقظان سامرا   وتفدحني فوق الوسادة غافيا
كأني على حجر الثعابين راقد   فما المح الاحلام الا أفاعيا
هنيئا لمن كانت بلاياه تنقضي   فان همومي كالجبال رواسيا
الا أيها النصاح بالله حسبكم   دعوني لآلامي ، دعوني لما بيا

خلقت ذكورا لو دعيت الى الصبا   لعدت الى حضن الطفولة حافيا
أذر على رأسي التراب مقهقها   وألقي الى عصف الرياح ردائيا
واصحب أترابي اذا ابتسم الضحى   نصابح تلا او نباكر واديا
وقد نثر الفجر الفتيق جمانه   فهل على الوادي وطل المراعيا
فمن ماعز يستقبل الشمس راقصا   ومن حمل يستروح النبت ثاغيا
ونغرق في السهل المموج حاليا   وقد أطلع الزهر الحسان فواغيا
فنجمع منها الفل كالطهر ناصعا   ونقطف منها الورد كالدم قانيا
ونهر كقلب الطفل صاف لجينه   دعانا فلبينا النمير المناديا
فعمنا على غدرانه الزرق ساعة   وطفنا بأكناف الرياض ثمانيا
نعيم حياة المرء ما دام غافلا   لقد شقي الانسان مذ بات واعيا
تولى شبابي بين سقم وحسرة   ففاشية الالام غمت شبابيا
فلا اكتحلت عيني بخضر جنانه   ولا رنحت أذني الطيور شواديا
مررت بأحواض الشبيبة ظامئا   فاسعد مني الطير يرتاد حاسيا

سواي له في مطلب الشعر محنة   يبيت على هم يروض القوافيا
ويبرزن لي مثل النجوم سوافرا   وينزلن في لمح الضياء فؤاديا
أخوض عباب اليم غير منفر   ويجهد غيري أن يخوض السواقيا
فلا حاجة للدوح في من يمده   ففي طبعه ان يسمق الدوح عاليا
ويحتلني شعري كما يسطع الضحى   فيغمر تسكاب الشعاع الروابيا
وأنهل من عذب القريض صفيه   كما عب نيسان السحاب الغواديا
فينسج ديباج الروائع مرقمي   ويأتي بأبكار القصيد غوانيا

ولا خير في شعر وان راق حسنه   اذا لم يكن من مهجة القلب راويا
وبئس بيان حائر اللون غامض   تلبس غايات وساء مراميا
تظن به سرا يفوتك فهمه   فترتد عن غاب الاعاجيب وانيا
فهون عليك الخطب ان مآله   يظل على بانيه أقتم خافيا
توهمت خلف الغاب نهرا وجنة   وان هو الا القفر اجرد عافيا
فما غاية الصحراء غير سرابها   ولا شيء الا الرمل أحمر صاليا

يعيبونني اني وان كنت حاضرا   فان يراعي ينظم الشعر باديا
فقلت لعمري أوثر الجزل محكما   فاختار مانوسا واغفل نابيا
انال من الماضي صفاء بيانه   وأستل من قلب الجديد المعانيا
انا الكرمة المخصاب أرست عروقها   ومدت على الدوح الشموخ الدواليا
فلاحت ربيعا للربيع ومطلعا   لاطرف ما في مطرف الحسن حاليا
فكانت لارباب العقول سلافة   وللبصر الواعي قطوفا دوانيا
وما ضرني أن لم اضرج صحائفي   بعهر فاختار القوافي الزوانيا
ولم ينصرف ذهني الى الغرب سارقا   ذخائر موتاه على الصدق جانيا
فكم طارق جاس القبور وفضها   وعاد باسلاب الاعاجم غازيا
فالبسها من حلة الضاد مئزرا   ولوح بالثوب الهجين مباهيا
ولو نفذت عيناك عبر حجابه   لالفيته الا من الزيف عاريا
شربت بكاسي لا أروم بديلها   وتانف نفسي ان تراني عاديا
اذا نضبت كاسي صدعت بها الثرى   وآثرت ان افنى وان مت صاديا

تذكرت اصحابي وقد هدني الاسى   لعل باصحابي الاقي عزائيا
وهمتهم روضا يقيني من اللظى   فكانوا على قلبي الجريح المكاويا
وكم ناشيء أوقرت بالفضل صلبه   فارهقني بالسيئات مجازيا
كذاك سواد الناس اما بلوتهم   تجدهم ضلالا او ذئابا ضواريا
رأيت دعي الزهد اما مؤلها   عتيا واما ثعلبيا مرائيا
يبشر بالتقوى وينهى عن الخنى   وفي سره يعصي التقى والنواهيا
يحض على الايمان والدين ملحدا   ويدعو الى الاحصان والطهر زانيا
مسيلمة من دونه افك مقول   وشيلوخ بالسحت الدنيء مرابيا

ترى صارت الدنيا لابليس موطنا   وعادت سفالات الامور أعاليا
فما يفلح الباغي ارتقاء مكانة   اذا لم يكن للآفكين مواليا
الا اكذب فان الصدق ولى زمانه   فان تتقن الزلفى بلغت المراقيا
تعهرت الدنيا فان كنت ساخطا   عليها فجزها او فدعها كما هيا
فان شئت في غاب الوحوش وجاهة   فلا بد أن تمسي مع الذئب عاويا
وتخفت صوت الله فيك وتنبري   فتخنق حدسا او ضميرا مناجيا
تعمد بهيم القول ان كنت سائسا   وسدد سهام الحقد ان كنت واشيا
ولبس عليهم بالاحاجي فانما   بصائرهم كالليل ادجن شاتيا
فكم لك في الدهماء من متنظر   جبان بطيء الفهم ينشد راعيا
ستتبعك القطعان فانعق فانهم   اناس كباش يتبعون مناديا
مطاياك فاركب من تشاء فانهم   ليخجلهم أن تبلغ التخت ماشيا
وكن صارما في المنكرات ولا تهن   فقد لانت الدنيا لمن كان قاسيا
وسيرهمو بالزجر طورا وتارة   بوعدك معسولا وسوطك عاسيا
وبالدين تبديه وان كنت ملحدا   فاحبب اليهم أن يلاقوك جاثيا
ولم حواليك الصحاب عصائبا   دروعا صلابا او عبيدا مواليا
وانزلهمو جنات وعد على الندى   ولا تخف الحيات ما دمت حاويا
فهل شمت في لبنان الا مزارعا   تداولها اهل الثراء ، مراعيا

لقد حفلت بالطيبات قصورهم   ولكن بيت المال قد بات خاليا
فافرغ بيوت الناس واملأ فراغه   فيدفعه الشعب المكبل راضيا

أراني غريبا في بلاد غريبة   وقد طمست دهم الخطوب رجائيا
فما أعرف الاحداث الا نوائبا   وما أعرف الايام الا عواديا
وأدهى جراح النفس ما كان خافيا   فاوجع مكلوما واعجز آسيا
اذا الماجد المئناف نزت جراحه   تنزه ان يستقبل الرزء باكيا
كذا الاسد الرئبال يطوي مصابه   ولو بات مغلول المخالب طاويا
يؤرقني هم يهد جوارحي   ولو كان منظورا لهد الرواسيا
أسائل نفسي في الصباح أنائما   سلخت الليالي الدهم أم كنت ساهيا
لكنت سعيدا لو تغمدني الكرى   وحلت أساطير الخيال مناميا
رضيت بأحلام السعادة نائما   فرارا من الارزاء ما دمت صاحيا
فما أتعس الانسان بالعقل عاثرا   واسعده محطولك الفهم ناسيا
فهاءنذا كالروض صوح ماؤه   فاصبح معتل الازاهير ذاويا
كسيرا ضعيف الحيل أحدب أعرجا   وكالقصب المرضوخ اصبحت واهيا
وكنت كجذع السنديانة ايدا   وكالرمح طعانا ، وكالسيف ماضيا

أفر الى أين الفرار من الاسى   وقد صار مني مهجتي والتراقيا
فلا اسمع الالحان الا نوادبا   وتسمعها اذن الخلي أغانيا
فلو رمت ان استقبل الشمس باسما   لعاد بهاء الشمس أسحم داجيا
فاغرق نفسي في الحداد ومرقمي   وسود احلامي وغل لسانيا
تمنيت ان استوطن القفر ناسكا   واترك اشباح الوجود ورائيا
سواء اذا ما المرء عاش بعزلة   اصاحب انسانا ام اختار ضاريا
مضيت شهيدا في الحياة مضرجا   ومن منقع الاوحال صفيت مائيا
وكان اذا ما غمني الكرب حازبا   نشقت مع السم الزعاف هوائيا
أحس دبيب الوهج بين جوانحي   والمح في افق الغروب مسائيا
فمن قد تمنى لي حياة مديدة   فمن غير علم قد تمنى شقائيا
سامضي الى رب رحيم يمدني   بغفرانه الضافي وان كنت خاطيا
فأين الرواقيون مني شجاعة   واين حماة الدين مني محاميا
ذنوبي لنفسي ما جنيت على امريء   فما كنت غدارا ولا كنت باغيا
لقد صهرت نار العذاب مآثمي   فكانت حياتي مطهري وحياتيا
سامثل يوم الحشر لله خاشعا   وقد حملت كفي اليمين كتابيا
عن القيم العليا دفعت بمرقم   رهيف كما شمت الحسام اليمانيا
نهضت باعباء الامانة صادقا   وقمت بآلاء الصداقة وافيا
شكورا على الحسنى، صفوحا عن الاذى   صريحا كماء المزن ينهل ضافيا
وعن شبهات الخسف أعليت همتي   وصنت ابائي واقتنيت حيائيا
وما كنت جبارا لستر نقيصة   ولا مستبدا جلمد القلب جافيا
ولا انقبضت كفي اذا هزني الندى   فشمت عيون البائسين بواكيا
الى الباخلين الموسرين تسددت   نصالي فذاقوا حنظلا من هجائيا
تعروا من الانسان روحا ورافة   فعريتهم للساخرين مراميا

وجدتك في مدحى لنفسي تلامني   فزور غضبانا وتعرض لاحيا
ألم ترني والهم هد جوانحي   اجود بروحي او ابث وداعيا
كفيتك ان تنعى هميروس قومه   فجئتك باسم الشعر والمجد ناعيا
لقد سؤت بي ظنا فها انا راحل   فيا لي مرثيا ويا لي راثيا

بولس سلامه



اميـل توفيـق

نظرية برتراند راسل في التربية

طريقة للسلام العالمي

بقلم اميل توفيـق

* * *

ظهر كتاب برتراند راسل «التربية والنظام الاجتماعي» في ١٩٣٢ ، وتلاحقت طبعاته ، التي كان اخرها الطبعة الخامسة سنة ١٩٥٦ – وقد جاء الكتاب في ١٤ فصلا يعتبر كل فصل منها بحثا قائما بذاته ، وفي الوقت نفسه حلقة في سلسلة الكتاب . والدارس المتأمل لهذا الكتاب العميق الجاد ، لا بد ان يخرج بأفكار واراء تربوية قيمة ، وان يجد اسسا عامة للتحليل والموازنة في معظم قضايا العصر وحسبي ان اقدم خلاصة لفكر راسل ، او المامة بالمحور الذي دار حوله الكتاب ، في السياق التالي :

يرى البعض ان الافراد الذين ينشأون ليصبحوا فرديات مستقلة – بالمعنى التربوي – يكونون بالضرورة مواطنين صالحين .. ولكن برتراند راسل يفرق عمليا بين التربية التي تستهدف تنشئة الطفل ليكون فردية نابهة مستقلة ، وتلك التي تستهدف تنشئته ليكون مواطنا صالحا .

ذلك لان تنشئة الطفل من اجل الاستقلال والنمو الفردي ، من الناحيتين العقلية والوجدانية ، شيء يختلف عن تنشئته من اجل خلقه مواطنا صالحا ، في مستقبل الايام . ويقول في ذلك ان « جوته » مثلا كان اقل فائدة من « جيمس وات » مخترع الالة البخارية من ناحية افادته لمواطنيه ، ولكن جوته كفرد او كشخصية كان يعتبر ذا مواهب ومؤهلات فردية تفوق تلك التي كانت لجيمس وات بكثير .

وهناك شقة خلاف كبيرة بين اولئك الذين يرون التربية مؤسسة على محور النفسية الفردية – واولئك الذين يرونها مبنية على اساس العلاقة بين الفرد والمجتمع .

وهنا يجدر ان نسأل هذا السؤال : ما الذي يكون الفـرد ؟

هل يكفي ان ينمو الطفل في « المعرفة » – وان يستوعب المدركات المختلفة التي تشتمل عليها العلوم والاداب التي انتجتها قرائح العلماء والادباء . ان المعرفة وحدها لا تكفي . اذ يجب أن يقترن ادراك الانسان بشعور ما يدرك . المعرفة يجب ان تقترن بالمتعة – بالفرح . او باللذة . الادراك لا بد له من « الوجدان » – ومع ذلك فان الانسان في المجتمع يستهدف الكمال وذلك من خلال ممارسته لارادته . بعبارة موجزة ان العناصر المكونة للفردية المستقلة ، والتي تسير به في طريق الكمال – هي المعرفة والشعور والارادة . او هي الحكمة والحب والقـوة .

وممارسة الفرد لارادته انما تعمل على تكامله مع انمائه في المعرفة والشعور – وبدون المجتمع لا يمارس الفرد ارادته . ولكن في المجتمع هناك فارق بين ممارسة الفرد لارادته كفردية ، وممارسته الارادة كمواطن .

فممارسة الانسان لارادته كفردية مستقلة (بدون ترويض لهذه الارادة) قد يخلق منه انسانا مستبدا او دكتاتورا ، لانه يريد ان يشبع هذه الارادة التي تحقق له ذاتيته واستقلاله . اما ممارسة الانسان لارادته كمواطن فانه يتطلب منه تكيفا وانسجاما مع الارادات المختلفة التي تحيط به .

وظيفة التربية اذن – وهي تتغيا الفردية والمواطنة معا – ينبغي ان تأخذ هذه الحقيقة في الاعتبار : ان هناك الفردية في مواجهة المواطنة . فالفرد اذا نظر اليه كمواطن فحسب – أي من وجهة نظر المواطنة ، لا يصبح انسانا خلاقا ، اذ أن ارادته المتكيفة تخلق منه انسانا لا اراديا ، من وجهة نظر فرديته اذا نمت في الطريق الاستقلالي .

والفرد اذا نظر اليه من اجل الفردية المستقلة ، فسوف تتعارض ارادته مع ارادة الاخرين ، ومن ثم ستتعارض مع مقتضيات المواطنة . ان الاتجاه نحو الفردية هو ضد الاتجاه نحو المواطنة ، ولكن التربية في عرف برتراند راسل ينبغي ان تعمل على ان تتوافق اهداف الفردية مع اهداف المواطنة .

نظرية راسل في التربية مبنية اساسا على هذا المحور : وجود التعارض ، ووجوب التوفيق .

ففي الفصل الاول من الكتاب نجد شرحا وتحليلا لهذا التعارض تحت عنوان : « الفرد ضد المواطن » (١) .

وفي الفصل الاخير من الكتاب نجد شرحا لراي الفيلسوف العالمي ، الذي يتضمن التوفيق بين الاتجاهين ، تحت عنوان : « التوفيق بين الفردية والمواطنة » (٢) .

يخلص الفيلسوف الكبير لوظيفة التربية من اجل السلام العالمي ، ومن اجل ازدهار الحضارات الفردية في القوميات المختلفة ، ومن اجل ان يؤدي كل ذلك الى رفاهية الفرد والمجتمع على السواء .

وقد ساق المؤلف امثلة عديدة للمواقف التي تلقى فيها التربية صعوبات ومقاومات في تادية رسالتها ، بل انه ساق امثلة للتعارض الذي تلقاه التربية وفيها تسهم هي ايضا في تمكين هذا التعارض ، وفي خلق العوائق امام رسالتهاالسوية . فقد كتب فصلا في « الديموقراطية والارستقراطية والبيروقراطية » شرح فيه وجهة النظر هذه . فيقول ان المدرسة التي تؤسسها الارستقراطية انما تشجع على قيام طبقة تتعلم ان تستبد وان تحكم وان تسود لمجرد الشعور بان هؤلاء الارستقراطيين متميزون عن غيرهم ، ومن ثم نجد أن خريجي هذه المدارس يصلون الى المناصب العالية القيادية واغلبهم لا يميزهم غير هذا الانتماء الطبقي ، بل قد يكون معظمهم من الاغبياء . اما الديمقراطية فهي خير طالما انها توحي باحترام النفس . ولكن آفة الديموقراطية تكمن في أنها توحي بمناهضة النابهين او المتفوقين .

ان شر الارستقراطية يكمن في انها ليس فقط تؤمن بأن بعض الناس هم أعلى وارفع واميز من غيرهم ، بل وان هذا العلو وهذا الامتياز انما هما من الامور الوراثية . ولكن في الديموقراطية هناك الاعتبار بأن الحقوق التي يدعيها المتفوقون او الموهوبون تكون عرضة لمقاومة الجماهير، او لاثارة الغريزة الجماعية باسم الديموقراطية. وبدلا من ان يترك للتربويين امر اكتشاف النبوغ او الموهبة وقتما تظهر حتى في بواكير الصبا ، من اجل رعايتها وتعهدها - يقاوم هذا الاتجاه بحجة ان نقل طفل صغير نابغ الى صف اعلى من صف اقرانه ، انما هو تصرف غير ديموقراطي - ومن هنا تفوت الفرصة على النابهين والموهوبين كما تفقد الامة بعض طاقاتها سدى .

اما البيروقراطيون الذين يملكون اصدار القرارات وتطبيق اللوائح وهم ليسوا في ميادين العمل او في حقول الانتاج ، ولكن من وراء مكاتبهم ، فهم طبقة الموظفين والاداريين الذين بموجب السلطات المخولة لهم اصبحوا يهتمون بالجانب الذي اختصوا بتنفيذه دون النظر الى الجوانب الاخرى . ومن هنا فان راسل يقترح بالنسبة لهؤلاء ان تكون التربية اساسا من اجل حضارة انسانية ، من اجل كليات انسانية ، او بعبارة اخرى ان المناهج يجب ان يستهدف نظرة شاملة اوسع ، في فروع تتكامل في النهاية لتعطي حاسة حضارية متميزة بالحكمة والشمول .

وفي فصل عن « الانفعال والنظام » يذكر راسل ان الشعور بالحب الذي يمنحه الكبار ينبغي ان يعطي شعورا بالامن او الطمانينة (٣) ، ولكن بحيث لا يقيد او يحد من الشعور بالحرية (٤) . أو ان يثير ردا لفعل انفعالي عميق. ان اللعب الذي هو حاجة اساسية للطفولة ، يجب ان يشبعها الابناء والاباء لان في اللعب تدعيما للعلاقات السوية بين الاباء وابنائهم .

ان الظروف الحاضرة التي تسود العالم - ظروف الانقسام والصدام - قد جعلت مسألة « التربية والحرية » مشكلة كبرى . فالحرية تعاني الكثير من معوقات التعبير . ان راسل يشجع الشباب في التعبير عما يحس من مشكلات . ويقول لندعهم يناقشون في حرية ما يحلو لهم من موضوعات تهمهم كموضوعات الاخلاق وغيرها ، وليقولوا ما يشاءون بشرط أن يكون حديثهم هو حديث العقل والمنطق ومقارنة الحجة او هو الحوار العقلي المتفتح . ولو أنهم اعطوا الفرص التي فيها يفكرون بعقولهم هم لا بعقول غيرهم ، بدون ان يجدوا تعنيفا او زجرا او قسرا او تهديدا ، فان هذا الجو الذي يتيحه لهم الكبار اذا اقترن بالوجدان والحب ، فسوف يجعل الحرية والامن يسيران جنبا الى جنب ، ولكن طالما أن الاوضاع العالمية الحاضرة ، في اي بلد من بلاد العالم ، هي على ما هي عليه ، فان النتيجة الحتمية للتربية الراهنة تجعل الحرية اذا نمت في فرد ما فعلى حساب شعوره بالامن - او تجعل شعوره بالامن اذا نما فعلى حساب حريته .

ان بناء الرجال الذين عليهم ان يخلقوا عالما افضل هو المشكلة الكبرى التي تواجهه علم النفس او تواجه المربين اليوم . المشكلة في اساسها كيف نجمع بين حرية الفكر وسلامة الاتجاهات العاطفية والمبادىء والميول .

وفي فصل اخر بعنوان « الغريزة الجماعية في التربية » (٥) يحلل لنا المؤلف الاثر الذي ينتج من تفاعل نفسية التلميذ مع المجتمع المدرسي ، والمجتمع الكبير . وخاصة هؤلاء الافراد النابهين او المرموقين او الذين يتميزون بالاحساس الدقيق . ذلك ان اية جماعة توحي في افرادها الضرورة بالتطابق او التماثل . وقد يحدث ان بعض النفسيات تستشعر الصراع نتيجة ما تحس بالشعور الاضطهادي ، او بشعور الصنعة ، او بشعور التمرد وما الى ذلك من انواع العواطف المنحرفة ، التي تنعكس على سلوك اصحابها . والمؤلف في هذا الصدد يهتم كسائر المربين ان تعالج المدرسة ما توحي به الغريزة الجماعية من عواطف او مشاعر او اتجاهات

منحرفة ، وان تهيء الجو لتقوية العوامل التي تساعد على التماثل السوي ، وارسال المبادىء الاجتماعية السوية .

من أمثلة الشخصيات التاريخية التي تأثرت بفعل الضغط الاجتماعي ، يذكر لنا المؤلف كارل ماركس ودزرائيلي . وفي مقارنة بينهما يقول ان ماركس كان يحس وهو شاب بالحقد نحو مجتمع يضطهده ليهوديته ، ولذلك فقد كان رد الفعل ـ في تكوين شخصيته واتجاهاتها ، موجها لا الى مضطهديه الاصليين ، بل الى الراسماليين ـ وهؤلاء كانوا حقا مكروهين . اما دزرائيلي ـ وكان يعتنق المسيحية ، مع انتمائه لاصل يهودي ، فقد جعلته مسيحيته ان يعمل على أن يتماثل سلوكه مع سلوك المجتمع البريطاني ـ ومن ثم فقد كانت نفسيته تميل للاستقرار اذ كان يستشعر الطمأنينة من عدم الاضطهاد . وبعبارة اخرى فقد تحول كارل ماركس الى شخصية ثورية ، واما دزرائيلي فقد وصف سلوكه بالتقليد الواقي من الاضطهاد.

وفي المبادىء وتطبيقها يذكر المؤلف الكبير ان الدول وبخاصة الكبرى تنتهك المبادىء التي ترفع للشباب شعاراتها . ويقول ان الولايات المتحدة الامريكية تعلم الناشئة تاريخ ابراهام لنكولن ، وترفعه كرمز للحرية التي تبشر بها ، ومع ذلك فكل من يرفع صوته مناديا ـ مثل لنكولن ـ بالحرية يجد نفسه مكبلا بالقيود ! ويقول أيضا أنه لو جاء السيد المسيح الى انجلترة التي ترفع اسمه وتدين بتعاليمه ، وتصرف كتصرفه منذ الفي عام ، لما سلم من قبضة بوليس سكوتلانديارد !! .

وفي باب « الوطنية في التربية » (٦) يكتب فصلا رائعا . انه يحلل فيه حب الوطن الاصيل الذي قوامه حب الفلاح والزارع للارض ، وحب الانسان للمكان الذي نشأ في ربوعه ، وحبه للتراث والامجاد الحضارية التي تنتمي لهذا الوطن . ولكن لماذا يمتزج هذا الحب الاصيل بكراهية الاوطان الاخرى ؟ والتقليل من شأن القوميات الاخرى ؟ لماذا ينقلب حب الوطن ولا سيما لدى الدول الكبرى الى تعصب قومي ، والى الرغبة في الغزو واستثمار الدول الصغيرة ؟ وبدلا من اقتصار وظيفة الدولة الخارجية على شئون الدفاع ، نجدها تتجاوزها الى الغزو والاستثمار والاعتداء بالحرب ، وتصبح الوطنية عندها مقترنة بالحرب والغزو والعدوان . أن من يقرأ هذا الفصل يضع يده على تحليل رائع لقضايا هذا العصر ـ وخاصة تلك التي وقعت بعد تأليف الكتاب مثل قضية الشرق الاوسط ، ويجد « منطق راسل تنديدا بموقف الصهيونية ، بل ويستطيع ان يربط بين ما كتب في هذا الفصل ، ورسالته الاخيرة التي ارسلها الى مؤتمر البرلمانيين الذي انعقد في القاهرة أخيرا ، قبيل وفاته بيوم واحد .

ان راسل يخاطب الساسة ورجال الفكر جميعا في كتابه هذا من أجل انقاذ العالم من الهوة التي سيتردى فيها لو تركت « القوميات » بدون ترشيد وتعديل وتغيير، يكون في اساسه تربويا . وهو يقترح ان يكتب التاريخ العالمي لجنة تضعها عصبة من الدول ، بحيث تبرز الحركات الحضارية اكثر مما تبرز الحروب ، واذا ذكرت البطولات التاريخية ، فلا ينبغي اغفال التنديد بالعدوان والمآسي الدموية والمظالم الصارخة ان التاريخ اليوم يمجد الحرب ، ويغفل أثر هؤلاء الذين يعملون على ارساء قواعد السلام ومبادئه . والتربية الحديثة يجب ان تعمل للسلام في عالم الغد . يقول راسل ربما كان تخيلي لعالم السلام نوعا من الاحلام او اليوتوبيات .. ولكن النضال من أجل تحقيقه يستحق العناء ، ويستأهل التعاون المثمر المتميز بتطبيق الاسلوب العلمي وتكامل الارادات جميعها .

ما الذي يحدث نتيجة التعارض بين اتجاه الفردية واتجاه المواطنة في التربية ؟ وكيف تعمل التربية على التوفيق بين الاتجاهين ؟ ..

يقول راسل انه حيثما يكون الهدف المطلوب هو الوصول الى التوافق التام ـ في مجتمع يسوده الظلم الاجتماعي مثلا ـ فهناك نتيجتان حتميتان : الاولى تقضي باخضاع الارادة الفردية او بالوصول الى الموافقة التامة ـ والثانية أن تتمرد هذه الارادة الفردية على الارادة المفروضة . وكلا الامرين شيء غير مستحب من ناحية الوظيفة التربوية ـ انما الشيء الجدير بالاهتمام ان تصبح التربية اداة للتغيير والتطوير ومن ثم تصبح هذه الاداة مفتاح التوفيق او المصالحة بين الاتجاهين .

وقد أوضح راسل ان التغيير الذي تؤدي اليه التربية يستلزم توفر بعض الشروط الهامة . اولها ان القائمين بشئون التربية انفسهم ينبغي ان يكونوا من طراز الرجال الديموقراطيين والذين يوحدون اتجاهاتهم ومبادئهم مع الاتجاه التقدمي الجديد ـ لا من النوع المتغطرس المستبد المعوق لكل تطور ، او النوع الذي يحب السلطة والمظاهر . والشرط الثاني أن دعاة التغيير ، في الدولة يجب ان يتميزوا بسعة الادراك ، وبقدرة عالية من التصور او التخيل تمكنهم من الحكم الصحيح على الاشياء ، وتجعلهم متفهمين للقيم التي يستهدفون الوصول اليها او المبادىء التي يرون انها ينبغي ان تسود المجتمع مستقبلا ، دون ان يكون لهم هدف الغنم الشخصي .

ودعاة التغيير هؤلاء يجب ان يكونوا ممن يطبقون الاسلوب العلمي سواء كان ذلك في المشكلات العلمية او

«Education and The Social Order»

ـ وفي النسخة التي طبعت بامريكا كان عنوان الكتاب
«Education and The Modern World»

Individual versus Citizen (1)

The Reconciliation of Individuality and Citizenship. (2) Safety (3) Freedom (4)

(٥) أصل العنوان هو « القطيع في التربية The Herd in Education

Patriotism in Education (6)

الصناعية او في المشكلات الاجتماعية . فالاسلوب العلمي هو الطريق الوحيد الذي يؤدي الى اكتشاف الحقائق ويقود الى المخترعات والى الحلول للمشكلات . ويقارن راسل بين العقلية العلمية وغيرها من العقليات فيقول ان عقلية الشاك او الذي يشك في كل شيء ، عقلية لا تصل الى شيء من الحق ، والعقلية الجامدة ترى أن الحقائق قد عرفت منذ القدم وانه لا يمكن الوصول الى شيء جديد من الحق . اما الباحث العلمي الذي يطبق الاسلوب العلمي بوسائل البحث فان عقليته تجد امامها الطريق مفتوحا ، كما ترى في الافق شيئا مجهولا عليها ان تكتشفه ومن هنا كان التطور والتقدم والتجديد ممكنا. وحتى الوصول الى الحقيقة عن طريق العلم لا يجعل تلك الحقيقة مطلقة او نهائية ، لانها في عرف العلم حقيقة نسبية ، وقد تدخل في أطار الحقائق الاخرى ، كما يمكن ادخال التعديلات عليها او التصحيح فيها .

على ان الشرط الثالث والمهم لاحداث التغيير المطلوب هو عنصر هام انساني ويتعلق بالمجتمع ككل ويعني به راسل عنصر التماسك الاجتماعي لانه يعتبر القوة الارادية الدافعة الى اهداف التغيير . ويعتبر راسل ان هذا التماسك له جذوره الهامة التي ينبغي تدعيمها كشعور أفراد المجتمع بالتراث المشترك وبالامجاد الحضارية .

ويتابع راسل القول ان أكبر خطر في التطبيق التربوي يتأتى من ان دعاة التغيير من اصحاب العقلية العلمية يجابهون في المجتمع الاتجاهات الرجعية التي تهدم وتحطم ما يبنيه العلم وما يصل اليه من نتائج وبدلا من ان تؤثر النتائج العلمية على سلوك الناس ليسود العدل وتزدهر الحضارة والانتاج ، اذا بأصحاب الاتجاهات الرجعية يقاومون وقد يتسلطون وبذلك تسود العواطف الهوجاء ، والظلم الاجتماعي ، ويفتقر المجتمع الى ايجاد الحلول السليمة .

ومن هنا يدعو راسل القائمين على شئون الدولة الى ضرورة ازاحة الرجعية ، ودفع تيار التقدم ليسير في مجراه . ويلاحظ الفيلسوف الكبير ان عنصر التماسك الاجتماعي – أو العنصر القومي – له آفته الكبرى حيث ان القومية – كما ذكر من قبل – هي التي تخلق في الظروف الحاضرة وفي ظل أوضاع العالم الراهنة وبخاصة في ظل تسلط القوميات الكبرى – تخلق – التفاضل والانانية وحب الحرب ولا تدعو الى التكامل والى التعاون كما ينبغي ان تؤدي اليه التربية القومية .

ومن اجل ذلك فان التربية القومية عند راسل ، ينبغي ان تشع وترتفع لتشمل شيئا اعلى منها هو الشعور بالعالمية . ذلك ان هناك تماسكا اخر ضروريا لحفظ التراث البشري كله ، هو التماسك الدولي الذي يتضمن الشعور بأن الجنس البشري هو وحدة متعاونة . وبعبارة اخرى ان حاسة التعاون القومي ينبغي – عن طريق التربية – ان تنمو وتكبر لتشمل حاسة التعاون الدولي أو القومية العالمية من اجل الحفاظ على المدنية العلمية .

ومن اجل تحقيق هذه الحاسة يقترح راسل انشاء الحكومة او الدولة العالمية وفي نطاقها يتم تكوين المؤسسة التربوية العالمية التي تجعل رسالتها هي تحقيق الولاء لهذه الحكومة او الدولة (بدون تعارض ، بل مع تكامل الولاء للدولة الوطنية) . وصحيح ان راسل يقر بأن مثل هذا الاقتراح صعب التنفيذ ، وانه سيلقى صعوبات ومقاومات لا حصر لها ، ولكنه يقول اذا كان البديل لهذه الدولة هو دمار المدنية وفناؤها ، فان النضال من أجل القومية العالمية لامد طويل يستحق كل عناء .

ان المجتمعات الحديثة هي الان اقرب التصاقا وقربا عما كانت عليه في الماضي من ناحية التركيب الاقتصادي والسياسي – واذا كان عليها ان تحظى بالنجاح ، فان هناك التزاما بالنماء المماثل في طريق المواطنة العالمية .

واذا حدث هذا ، فمعنى ذلك استتباب عناصر السلام لكل قومية من القوميات ، وبالتالي سوف تتوفر عوامل الانتاج والاحياء للحضارات الفردية ، وازدهار الفنون والاداب ، ورفع مستوى المعيشة في كل بلد بما يحقق السعادة والرفاهية للفرد والمجتمع على السواء .

شبين الكوم – ج٠ع٠م٠ **اميل توفيق**

ما اودعك

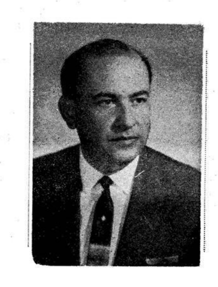
الوجد رق فأوجعك
والحزن جفف أدمعك
حيران .. ولهان الشجون
بسحر جفن لوعك
كبر الهوى في خافقيك
فراح يروي أضلعك
ورنوت للحب الشهي
فكان جرحك مرتعك
اقبلت تبسم للدلال
فمال عنك وودعك
وزعت عمرك ، غانما
بؤس الجوى ، فتوزعك
لله أنت ، ممزق
الآهات ، يا ما أودعك
يكفيك ، بارحت الجمال
فلا عليك ، ولا معك

فوزي عطوي

الى صديـق

فـؤاد الخشن

الشويفات ــ لبنان



تلمع الدهشة في عينيك
ينداح الســؤال
في الفم اليابس للغيظ :
ــ « لمـــاذا
كلما اخطأ انسان تسامح ؟
ولماذا كلما اخفى صديق
عنك ما يضمر في النفس تصارح ؟
اهو ضعف وغبـاء
أم ضـــلال
منك عن درب الرجوله
أم غريب انت عن هذي المسارح
تجهـل الادوار ...
تركيز قنـاع الارث !
هـز السـيف ...
عـادات القبيلـه ...
ورمـاح الثـار
سـور العزم في وجه تحد
يتخطى بسهولـه ،
كلما شاء اعتلاء واجتيازا ،
حـائط الحــد ...
ويطويه بقفزات اعتداد وبطولة »

ــ انا صحو من دم الصيف
وفجر من نقاء ومحبـه
واكتنـاه كسر القشره
عند سطـح يغطـي
الف فردوس على الارض ورغبه ...
انا انسان يرى العيش
صفـاء وطفولـه
ويرى في بسمة الانسان قلبه
ليس للبغض ثوان عنده
عبثا يهدرها ، في غرزه
بقلوب الناس نابا اسودا
راعفا بالسـم نـاضح
وهو في رمل البوادي واحـة
ترشف الطيب وافياء السوانح ...
طائر من جنة الحـب التـي
تزرع الشوق التهافا في الجوانح
كلما اغفت لديه رغبـة
هفهفت في النفس آلاف المراوح !

الطفل الذي لم يبك

بقلم جهاد الكاتب

تركت سماعة الهاتف كصياد فاشل يغمره شعوره بالهزيمة . الدنيا بكل صخورها تنحدر الى صدري ، واللفافة الرخيصة تتبخر بسرعة تقلقني . عقارب الساعة لصوص خبثاء .. واصوات الامهات في اذني صيحات الم ، يصرخن ويبكين .. ثم تحدث الولادة .

لا ادري ماذا افعل !

امضغ شفتي ، واطعن الارض بقدمي .. وانهض لانظر عبر النافذة الوسيعة .

شمس أيلول محرقة . والاشجار صامتة مذعورة .

رميت نفسي فوق الكراسي المخدرة .. تنقلت من غرفة الى غرفة . فتحت دليل الهاتف السميك ، وطبقته ثم رميته بعيداً ..

نظرت في المرآة .. وجهي وجه امرأة عجوز صلعاء . وخطر لي ان شاربي المحلوقين يبرزان كاشواك متهدلة مداسة ، وراسي يصفر .. وكدت أضرب بقبضتي المرآة !

القلق يتسرب من الجدران .. من النوافذ ، يطرق الابواب ، ويهمس في اذني .. أهرب منه فينشد في اذني لحنا قاتما .. ماذا لو تعثرت الولادة ! سيقول الطبيب باقتضاب :

ــ الام او الطفل !؟

وسيقول أخي بسرعة ، ودون تفكير :

ــ الام ..

عندها ستخرج قطعة لحم صامتة .. وينهي الطبيب عمله بشد أصابعه على وريقات مالية وكأنه يصنع التاريخ ! لماذا انت متشائم ! ..

زجاج النوافذ وجوه متألمة ، معذبة . اذا اخطأ الطبيب ذهبت الحياة ، واشتدت الدموع في العيون . الطبيب لا يصنع شيئا ، لا يعطي الحياة .. ولكنه يستطيع ان يفعل شيئا من اجل الحياة . لماذا يحلو لبعضهم ان يجعل الحياة تجارة .. ربما يصنع المعجزات !

عبر الجدران الصم تسرب اليأس .. الساعة الثامنة والشمس محرقة ، والمذياع صامت ، فقد فرغت مدخراته في هذا الصباح . والجيران لم يستيقظوا بعد ، فالسقف لا يزال ساكنا . سحبت شباكي ، قلت :

ــ خير !

جاءني صوت بعيد ، مضطرب ، ارقه الالم :

ــ انها تتعذب ...

والطبيب .. الا يفعل شيئا ؟

ــ يعمل جهده .

لعنت الهاتف .. وشتمت مدير البريد . امي قالت الاطباء لا يفهمون شيئا ، والولادة في البيت افضل .. الاطباء يعرفون كيف يحلقون ذقونهم وشواربهم ويركزون نظاراتهم فوق عيونهم .. ثم انهم يكذبون . كنت أحتد لكلامها ، واحاول اقناعها بأفضلية العلم على القابلات الجاهلات .. ولكنها كانت تعرب عن سخريتها مما اقول فأسكت .

اخي بذل كل ما يملك كيلا يسمع صوت آلام زوجته .. ولكنها تصرخ !

كل الشوارع تضيق ، وجدرانها تتشاهق ، واعمدتها تتطاول . وسائق السيارة الذي حملني الى المستشفى ذو عينين منتفختين وذقن خشنة سوداء تميل الى الزرقة . قال بعد ان اعترض طريق السيارة ولد يقفز :

ــ يلعن الاولاد .

كرهت السائق لانه يلعن الاولاد .. يلعن الحياة .

الناس يمتصهم العمل ، وهم لا يعلمون أن مخلوقا مثلهم سيكون معهم بعد قليل . لم تقل لي امي انها تعذبت في ولادتي ، وانا ادرك الان انها صرخت وتألمت كثيرا !

في البهو المعتم التقيت بأخي يقف جامدا .. لفافته في فمه ، وولاعته في يده ، يفرغ توتر اعصابه فيها ، يولعها ويطفئها . لم يقل لي شيئا الا حين خرجت ممرضة صغيرة بسرعة وعيناه معلقتان بالباب :

ــ خدروها .

سرت في جسمي حركة ارتياح .. لن تشعر بآلام بعد ثلاثة ايام قاتمة . النور المسترسل عبر زجاج الباب اصفر شاحب ، وصمت اخي قوي ، ودخان اللفافات يتجمع في سقف البهو الواطيء ويصنع بركة عميقة من الانتظار . انني لا اعرف مشاعر انسان ينتظر ان يصبح اثنين .

فجأة يجد نفسه اثنين .. قطعة منه تتحرك ، تبكي وتصرخ وتضحك . ولكنني اوقن في اعماق نفسي انها اصدق مشاعر في الوجود . قرأت في عيني اخي آيات الحنان قبل ان يرزق شيئا ، قبل ان يعرف شكل المخلوق المنتظر . انه لشيء رائع ان يحب الانسان شيئا لم يره بعد !

جلس على مقعد طويل ، وحاولت انا ان افعل ما يجعله يبتسم ، الا ان القلق كان يدور في غرف المستشفى ، يدور ويئز ، ويضرب بجناحيه المفزعين اهدابنا وقلوبنا ، ويلكز وجناتنا ، وصمت الانتظار يقف امام الابواب بقامته الاسطورية ، ويحمل منجلا لامعا يطوق قلعة كاملة .



كنت طفلا .. وليتني اعود ، أتنقل من حضن الى حضن .. تلثمني الشفاه الحلوة ، وتدغدغ وجهي ، وتداعب شعري ، تلامس اصابعي . ليتني طفل لا اعلم أن امي تألمت من اجلي ، وتعذبت وصرخت . ليتني طفل تقول لي امي : وجدناك في كيس الطحين !

اللفافة تحترق بين شفتي ، والدخان ينصب شباكه أمام عيني .. ولهفة بيضاء تنشر اشرعتها عبر امواج زرق تتصادم .

حدثت جلبة مكبوتة خلف الباب ، وسمعت صوتا خشنا يردد همهمات لم أفهمها ، ثم خرجت امي ، فقفز اليها اخي وهي تفرغ عينيها من الدموع .. قال :

ــ خير ؟

بكت بصوت مرتفع حاولت اعدامه . قال وصوته يتهدج :

ــ لماذا تبكين ؟!

امله يقف عند الشفتين .. فرحته وتعاسته ، نشوته وانقباضه يقف عند كلمة . قالت امي :

ــ صبي ..

ثم بكت .. عندما نأتي يبكون ، وعندما نذهب يبكون . أي قدرة تصنع هذا الانسان !

الدموع في عيني أخي محرجة ، وصدره يتعالى ، ونشوة انتصاره تطبع قسمات وجهه ، انتصار لا يماثله اخر . واختفى فجأة ازيز القلق ، وهرب صمت الانتظار .. استفسر :

ــ وهي ؟

ــ بخير .

خرج الطبيب وهو يخلع رداءه الابيض .. بسمته كمن ربح صفقة خضار ، ووراءه الممرضة الصغيرة ، قال لاخي بلهجة بائع يكسب زبونا جديدا :

ــ مبروك ..

وابتلعه الممر ، فيما افاق اخي من نشوته القاصمة ، همس كأنه لا يصدق :

ــ صبي .. صبي !

واقتحم الفرفة ، ثم لحقته امي .

بقيت في الممر امتص لفافتي وفي حلقي غصة فرح ، غصة حزن .. لشيء لا أعرفه . وارتفعت هالة الى راسي عجزت عن ادراكها .

انسحبت بعيدا عن الباب ، مهزوما ، منتصرا ، لا ادري . غدا يكبر ويناديني « عمي » واحتضنه واقبله ، يركض خلفي لاخذه معي .

ولا ادري لم خطر لي موت ابي ، عندها بكيت كطفل ، وهربت من المستشفى قبل أن تمسك بي نظرات الممرضة .

عبر شريط الهاتف الابله سألت اخي : هل هو حلو ؟!

ــ كأبيه .

ضحكت فأنا عمه ايضا :

ــ وصحته ؟

ــ جيدة .. عظيمة .

ــ وشعره ؟

ــ غامق

ــ وعيناه ؟

ــ حلو .. حلو كل ما فيه حلو .

هزتني نشوة انتصار ، وددت أن ابتلع خط الهاتف ابتلاعا ، واظل أردد ما سمعت . قلت :

ــ هل تستطيع ان تسمعني بكاءه؟

ــ لم يبك بعد .

ــ لم يبك !

لم يبك الطفل !

ظللت اسأل نفسي ، كل الاطفال يبكون ، عندما يشتمون رائحة الدنيا يبكون ، سعادة أو الما لست ادري ، ولكنهم يبكون بشدة ، وتضحك الام وهي ترى طفلها يبكي ، فسيصبح صدره عريضا !

مساء كنت اطاطيء راسي على سريره الصغير ، مقمطا في ثياب جديدة مزخرفة بيد امه قبل أن يرى الدنيا باشهر . في تلك اللحظة ، وانا اتملق وجهه الصغير ، خطر لي ابي . فوجدت نفسي بحاجة الى بكاء عنيف . حملته بين يدي . باقة ربيع مجدلة بالشمس . سألت اخي :

ــ ماذا قال الطبيب ؟

ــ صحته جيدة .. ووزنه طبيعي .

وهمست : ولكنه لا يبكي .

ــ سيبكي ..

لم أشأ تشويه الصورة والحلم والحقيقة التي يعيشها اخي ، فنظرت الى عيني امي ، وقرأت فيهما القلق . وعرفت أنها تقرأ بعض الايات .

غادرت الفرفة والضيق يذبح رقبتي .. ولا ادري لم رجعت لالقي نظرة شرهة الى وجه الطفل . عيناه جميلتان ، وفمه برعم ندي .. لمست شفتيه بأصبعي ، وغنيت له ، وضحكنا . داعبت أصابعه وقبلتها ، وغنيت له ، وخطر لي ان اقرصه . وعندما غادرت الفرفة ثانية سمعت صوتا يقول لي :

ــ سيكون لك انت طفل ايضا .

عدت الى البيت ، بعد ان قتلت ساعات طويلة استعيد فيها ذكرياتي واقلبها . عدت وانا اعرف كيف يكون الرجل المهزوم ، تماما كمقعد الحديقة الهرم الذي جلست عليه ، كحارس الحديقة الذي ينفخ صفارته دون ان يرى احدا يدوس الازهار .. كالشجرة اليابسة ذات الاغصان العارية .. لم أجد تفسيرا لهذا الشعور .. واستغربت أن يقاربني.

دخلت البيت فاستقبلتني جوقة الحزن التي احتلت الاركان كلها ، وتمددت على المقاعد بعبوس . الستائر يضربها هواء مفاجيء وكأنها مرفوعة فوق سطح بناء ، والجدران تدهن نفسها بالسواد ، والصور تتحرك وتقلب لي ظهرها ، والمذياع الصغير مرمي على الارض ، قطعة ميتة . لم تعد اللفافات تشدني .. حرقت لساني لكثر ما ابتلعت دخانها، وانا لا أحبها ..

هززت سماعة الهاتف :

ــ كيف حاله ؟

واجاب عني صمت مثقل بالحزن والهدوء .. قلت :

ــ الم يبك ؟

سمعت تنهدا مكبوتا :

ــ لن يبكي ابدا ..

ثم أنني بكيت .. بكيت بكاء رجل.

حلب **جهاد الكاتب**

محب الدين الخطيب

مؤاساة لابنه الوحيد قصي الخطيب

★

يا «خطيبا» قد عاش فينا حبيبا　　سكن الـروح واستباح القلوبـا
في ضفاف النيل استقامت له الدا　　ر ، ورفت في الحسن نخلا رطيبا
«شارع الفتح» كان موطنه الدا　　ئم ، سمى به المقام الرحيبا
جئته ساكن الجوار على «الرو　　ضة» ، أزجي اليه ردا حسيبا
ادهشتني فيه سجايا امام　　جعل الكتب همه المطلوبا
بات بين الاوراق صفرا وبيضا　　في رحاب الكتب ضمت عجيبا
سلفيا قد كان في منبت الشا　　م ، لـه نفحة تند طيوبا
فاتى مصر بانيا في التواليـ　　ـف ، واحيا فيها الكتاب المصيبا
نشر الكتب طابعا واديبا　　كاتبا ، وانتمى البعاد القريبا
ويح شهرية جلاها من الزهـ　　ـراء» اقلامها قرعن الخطوبا
ان تسل مصر في تواريخ جد　　واه تقل كان عالما موهوبا
في احاديثه حلاوة سحر　　ملك السمع واصطفاه سليبا
عشق الروح واجتواه كراه　　ساهدا عابدا طهورا منيبا
كان للشعر راويا يتحدى　　كل حفظ مواعظا ونسيبا
ولنص «الحديث» يرفع لقيا　　ه الى مصدر «النبي» أريبا
قد تحيرت في صفات له في الوصـ　　ـف ، هل كان عبقريا طبيبا
او تولى روحية الفكر والفن　　واحيا التراث ندبا اديبا
ناضر الوجه ، مشرق النفس وتلـ　　ـقاه بجوف الدجى يناجي الغيوبا
كان ملء القريب هديا وعونا　　وبتحنانه يضم الغريبا
ذكريات لـه تعج على الدهـ　　ـر حوت ما دهشت بحرا صبيبا
وعراكا في الفكر كان قديما　　وجديدا شهى اليك الحروبا
مسلما مؤمنا يفيض حياة　　في سبيل القنوت ، عفا مهيبا
زاهدا في اللبوس والمظهر الخا　　دع ما ان ترى عليه معيبا
أرخ المجد في سبيل الميامـ　　ـن تجده عنوانه المكتوبا
كان ركنا في نهضة الشرق والعر　　ب ، ونورا اضاء جيلا نجيبا

حن للشام واشتكى لي هواه　　عاشق الغوطتين ماء وطيبا
وعلى «دمر» و «الربوة» الغنا　　ء حب لـه يشق الجيوبا
ان «آل الخطيب» طرا يؤدو　　نك في وجدهم شبابا وشيبا
فاتخذ في العلى مقاما سريا　　في الفراديس للهداة جنيبا

يا «محب الدين الخطيب» تناديـ　　ـك ديار الخلود فيها خطيبا

دمشق　　زكي المحاسني

من اعلام الفكر والادب في فلسطين

الدكتور سابا شبر ـ محمد حسن علاء الدين

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ ـ الدكتور سابا شبر

منذ طاف الدكتور سابا شبر بالعالم الجديد ولمس انعدام الروحانية في نفوس اناسيه ووقف على مأساة الانسانية في اسيا وافريقية ... وعلى الظلم الفادح الذي يبلو شروره سواد الناس هناك ... وهو كافر بسائر القيم والمثل العليا ... ويائس من « الامم المتحدة » ومن الالفاظ التي تجترها الدول ... وظل الشعار الذي يردده في ندواته شرقا وغربا ... قوله الصريح الجريء :

« الحرية ؟ الاستقلال ؟ الوطنية ؟ الكرامة القومية ؟ الامم المتحدة ؟ حقوق الانسان ؟ الحرب الباردة ؟ ليست هذه جميعا سوى مخدرات وترهات ... ما دامت الاغلبية العظمى تعيش حياة اسوأ من حياة الدواب ... والقردة ... في الاحياء القذرة والحقيرة في مدن وقرى اسيا وافريقية ! » .

ولد « سابا » في بيت المقدس سنة ١٩٢٣ وتحدر من اسرة عريقة في عروبتها ، سخية بطائفة من المهندسين وذوي الحرف الحرة على فلسطين وشقيقاتها العربيات ! وكانت دراسته الابتدائية في مدرسة المطران بالقدس والثانوية في كلية ترانسانطة وحصل منها على دبلوم سنة ١٩٤١ ونجح في امتحاني مترك لندن والمترك الفلسطيني .

وفي سنة ١٩٤٤ حصل على بكلوريوس في الهندسة المدنية من الجامعة الاميركية في بيروت بدرجة اولى مع امتياز وفي سنة ١٩٤٦ حصل على بكلوريوس في الهندسة المعمارية من جامعة القاهرة بتفوق ، وخلال العطل المدرسية كان يعمل رساما معماريا في مكتب والده المهندس جورج سابا شبر بالقدس .

وفي سنة ١٩٤٦ قصد الولايات المتحدة طلبا للعلم وبعد سنة حصل على الماجستير في الهندسة المعمارية من جامعة « ماساشوسيتس انستيتوت اوف تكنولوجي » ، وكانت الاطروحة التي قدمها تصميمباني كلية الهندسة في القدس اذ كان والده المرحوم المهندس جورج شبر قد اشترى الارض اللازمة لبناء « جامعة القدس » على جبل سكوبس والشيخ جراح « بما في ذلك الملعب البلدي » وكان يعد نجله سابا ليتسلم شؤون الجامعة بدءا بكلية حديثة للهندسة تفي حاجات منطقة القدس فنيا وتحد من هجرة الشبان العرب الى الخارج .

وفي سنة ١٩٤٨ احرز ماجستيرا ثانية من جامعة ماساشوسيتس في تنظيم المدن والاقاليم وكانت الاطروحة الثانية التي اعدها تكملة للاطروحة الاولى وموضوعها تصميم وتنظيم المدينة المرتقب نموها حول « جامعة القدس » .

وفي سنة ١٩٥٦ نال شهادة الدكتوراه من جامعة كورنيل وكان موضوع الاطروحة التي قدمها « التكوين والتطور المديني » وقوام هذه الاطروحة ٥٩٩ صفحة جاءت في مجلدين ضخمين احدهما يشتمل على رسومات فنية بريشته وقد اتسمت بميزتين :

الاولى : انها تشتمل على عدة نظريات فنية اساسية .

الثانية : انها كتبت بلغة انكليزية رفيعة ، ولقد استعان اساتذته ببعض اللغويين من القسم الانكليزي في الجامعة لتفسير وتبسيط بعض المصطلحات والتعابير . وكانت موضوعات دراسته للدكتوراه الرئيسية « تنظيم المدن والاقاليم » والثانوية « الادارة العامة والتجارة » .

وخلال اقامة الدكتور شبر في الولايات المتحدة عمل مهندسا معماريا في مدينة هاريسبورغ بولاية بنسلفانيا (صيف ١٩٤٨) واستاذ مساعد في العمارة وتنظيم المدن بجامعة كانساس في مدينة مانهاتن بولاية كانساس (صيف ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩) ورئيسا لمهندسي التنظيم في مدينة كانساس بولاية ميسوري (صيف ١٩٤٩) واستاذ مساعد في تنظيم المدن في « معهد رانسيلر بوليتيك » بمدينة تروي بولاية نيويورك (١٩٤٩ ـ ١٩٥٠) ومستشارا للقسم الاقتصادي في مجلس التخطيط بمدينة تروي بولاية نيويورك ورئيسا لمكتب هندسي معروف في مدينة بوسطن بولاية ماساشوستس (صيف ١٩٥٠) واستاذا مساعدا في « معهد رانسيلر بوليتيك » بمدينة واشنطن (صيف ١٩٥٠) .

وفي صيف ١٩٥٤ عاد الدكتور شبر الى بيروت ليعمل استاذا في كلية الهندسة بالجامعة الامريكية وليؤسس فرعا لتنظيم المدن الا انه آثر الرجوع الى الولايات المتحدة للحصول على الدكتوراه من جامعة كورنيل حيث كان يدرس خلال سني (١٩٥٤ ـ ١٩٥٦) ويعمل مهندسا معماريا في مركز كورنيل للابحاث السكنية . وفي سنة ١٩٥٦ عاد الى بيروت نهائيا وترأس المكتب الفني في المصلحة الوطنية للتعمير (١٩٥٦ ـ ١٩٥٩) . وفي شباط ١٩٥٩ عمل مستشارا فنيا لشؤون التنظيم في بلدية دمشق ووزارة الشؤون البلدية والقروية .

وفي ايلول ١٩٥٩ عين مديرا للمكتب الاستشاري في مدينة « خبر » بالسعودية وصمم عدة مشاريع لشركة ارامكو ، وفي سنة ١٩٦٠ عمل مستشارا للمكتب الاستشاري الهندسي في بيروت وخبيرا لوزارة الاشغال العامة اللبنانية .

وفي سنة ١٩٦١ عين مساعدا لرئيس المهندسين في وزارة الاشغال العامة بالكويت حيث كان مسؤولا عن قطاعات المساحة والتنظيم والتصميم .

وفي صيف عام ١٩٦٨ قصد مدينة بادنو بهام بالمانيا ليقضي اجازته هناك فدخل مصحا لمعالجة امراض القلب ، ونظرا للاعمال المرهقة التي اضطلع بها وقام بتخطيطها وانجازها قضى نحبه في ٤ ـ ٧ ـ ١٩٦٨ اثر نوبة قلبية حادة قضت على هذا العبقري .

وبعد ان حنط جثمانه ارسل جوا من فرنكفورت الى بيروت ودفن في ٧ ـ ٧ ـ ١٩٦٨ بمقبرة كنيسة سيدة النياح الارثوذكسية برأس بيروت ، فخسر العالم العربي بهذا النابغ العملاق مهندسا لامعا اتسم بالفكر النير والثقافة العالية ، وترك مكانا شامخا في ميدان التخطيط والعمارة والزراعة ومركز الابحاث عضوا ومستشارا في المجلس البلدي الكويتي وعضوا وخبيرا في الصندوق الكويتي للتنمية وخبيرا في مجلس التخطيط الكويتي .

وفي سنة ١٩٦١ استدعته الحكومة الاردنية لاستشارته في تصميم مدينة العقبة وفي سنة ١٩٦٦ وضع تقريرا شاملا عن التنظيم المدني والاقليمي في ليبيا .

وتقديرا لعلمه الغزير وكفاآته الفنية الفذة أطلقت عليه مجلة « ميدل ايست بزنس دايجست » لقب « الشخصية العربية لعام ١٩٦٣ » واسمته « المخطط العربي » .

من آثاره القلمية : زود الدكتور شبر خزانة الهندسة العربية بشوامخ من المؤلفات الفريدة وقد قابلها اهل الفن شرقا وغربا بالتقدير والاعجاب ، ونشر عشرات المقالات الفنية في اكثر من خمس وعشرين

مجلة وصحيفة ، وقد حث فيها على ازدهار التنظيم الصحيح للمدن والمباني .

وكان من هواياته الرسم والكتابة والقاء المحاضرات الفنية ، ونشر له ما يقرب من الف مقال باللغتين العربية والانكليزية في صحف لبنان ومصر والكويت ، وتناول فيها موضوعات طريفة ، ولقي اتقانه اللغة الانكليزية اعجاب الكثيرين من الاعلام اللغويين .

ولم ينس الدكتور شبر فلسطين وطنه المغصوب فكتب عن ماساة العرب فيها مقالات قيمة بالانكليزية والعربية قوبلت بتقدير من المثقفين والساسة .

ومات الدكتور شبر وهو يحكي لنفسه ... ويرسم لنفسه ... لان من حوله لم يفهموه ، وبفقده خسر العالم العربي علما من أعلام التخطيط والعمارة ، ولم يترك مهندس عربي مثل ما ترك الدكتور شبر من مؤلفات ودراسات وبحوث ستكون مرجعا علميا على مدى السنين ، وسيذكره التاريخ في ذمته عالما فذا ومهندسا عظيما حاضر في بيروت والقاهرة والكويت وطوكيو وسنغافورة وبراغ وطرابلس (ليبيا) وبغداد والبصرة ونيودلهي والخرطوم وشيراز وباريس ولندن واديس ابابا ورودكي (الهند) وفيزبادن وبلغراد وباندونغ وكولومبو وعمان .

كان الدكتور شبر يعد بحق صرحا ممردا في الهندسة وفي يقيني ان الاثار التي خلفها يجب ان تدرس عناصرها لنلم بأبعاد شخصيته الفذة ، وان المؤلفات والدراسات والبحوث التي تركها في الخزانة العربية لم يترك نظيرها فنان سواه ..

ولقد اجزل في هباته للدكتور شبر فوهبه عقلا نيرا يرى الامور على حقيقتها ، وقلما خصبا يعبر عن خلجات نفسه ومشاعره . وكانت رسومه عبارة عن نقط وخطوط ... يضمها ويؤلفها ويركبها ببساطة ... فتراها مدنا وعمارات ومنائر وشخوصا تنطق بعبقريته .

ووشت ريشته سلسلة من اللوحات الهندسية الرائعة لمناظر عربية وقد تغنى فيها بمهارة العرب وبراعتهم في الفن المعماري ولاقت تلك اللوحات التي رسمها اعجاب وتقدير اهل الفن ، وكثير من اللوحات التي رسمها تزين جدران سفارات دولة الكويت .

ومن رسومه في فلسطين : الحرم القدسي الشريف ، قبة الصخرة المشرفة ، احد ابواب القدس القديمة ، احدى طرقات القدس القديمة ، منظر من القدس القديمة ، بيت لحم ، القيامة ، منظر عام لمدينة القدس .

ومن لوحاته في الاردن : البتراء ، جرش .

ومن رسومه في الجمهورية العربية اليمنية : منظر عام لجزء من صنعاء ، منظر عام لصنعاء من احد سطوح منازلها ، منظر يبين تكوين المدينة اليمنية ، واجهة لاحدى العمارات السكنية في صنعاء تبدو فيها معالم الزخرف ، مآذن يمنية تحاكي ناطحات السحاب .

ومن لوحاته في المغرب العربي : احدى الساحات العامة ، سوق مسقوفة في مدينة مراكش يبرز الشكل المقوس الذي تتشابه فيه معظم الاسواق في المدن العربية والاسلامية القديمة ، احدى مآذن مدينة فاس ، مسجد ومئذنة في تطوان ، مئذنة احد مساجد مدينة فاس وكأنها برج او ناطحة سحاب ، مئذنة في الدار البيضاء ، منارة تتجلى فيها الزخرفة والبراعة في الرسم والنحت .

من ابرز مؤلفاته :

١ ــ التقرير السنوي الاول ــ بالعربية ــ (٣٤٠ صفحة) ١٩٥٧
٢ ــ وجوه المدينة ــ بالعربية والانكليزية (٨٦ صفحة) ١٩٦٢
٣ ــ علم التنظيم وتطور الكويت ــ بالعربية (٨١ صفحة) ١٩٦٣
٤ ــ العلم وتنظيم المدن العربية (١) ــ بالعربية (٣٠٢ صفحة) ١٩٦٢ .
٥ ــ المدينة الكويتية ــ بالانكليزية (٧٠٢ صفحة) ١٩٦٤
٦ ــ افاق جديدة للمدن ــ بالعربية والانكليزية (٢٢٢ صفحة) ١٩٦٦ .
٧ ــ النمو الحاضر للمدينة العربية ــ بالانكليزية (٨٥٠ صفحة) ١٩٦٨ .

والكتاب الاخير يعتبر مرجعا مهما في قطاع تطور البلدان العربية ومدنها ، ويبرز قيمة التراث العربي واهمية ما قدم العرب في حقلي العمارة وتنظيم المدن وما يتفرع منهما كعلم الاجتماع والاقتصاد وغيرهما من العلوم الاجتماعية . وفي هذا الكتاب شدد الدكتور سابا على ابراز العلامة العربي « ابن خلدون » كمرجع قديم مهم في هذه الموضوعات ، وقد عمل على ترجمة « مقدمته » الشهيرة الى اللغة الانكليزية .

وليشاركنا القارىء الكريم المتعة التي اضفاها علينا الدكتور شبر بكتابه « النمو » الحاضر للمدينة العربية » نثبت بعض ما كتبه الدكتور سميح مسعود احد العاملين في القطاع الصناعي بالكويت عن هذه الملحمة الفريدة :

« لقد ظل سابا طول حياته حتى يوم وفاته متالقا لامع الذكاء خصب القريحة ، لا تخبو حيويته ولا ينطفىء ذهنه . كان متعدد المواهب، فكان كاتبا وعالما وفنانا ومدافعا عن قضايا امته . كان رمزا للشباب الفلسطيني المثقف الذي ولدت في حلقه الحروف بعد التشرد ، فلم تزرع في ارضه ، تركها تنبت في بيادر الارض العربية ، التي آمن بأنها ارضه ، وكانت حروفه صادقة نابعة من اعماق احزان شعبه التي احتضنته في رحلة الحياة حتى النهاية .

والكتاب الذي نحن بصدده سابع كتاب يؤلفه سابا في حياته ويصدر بعد مرور عام على وفاته ، وهو جهد جهيد بذله في هذا الميدان البكر ، الذي لم يطرق قبله . وفي الكتاب لمسات رائعة بل ومضات عبقرية تعطي صورة شاملة عن المدينة العربية ، انه سفر جامع يلف في نظرة شاملة كل ما يتعلق بالتطور ، ويرسم سياسة هندسية اقتصادية اجتماعية علمية مدروسة في البلاد العربية من شانها ان تضع الاسس الكفيلة لسعادة الانسان العربي .

والصورة التي يصورها سابا عن نفسه في هذا الكتاب صورة رجل لا تفارق يده اوراقه ، يسجل عليها كل ما يختلج في اعماقه . فهو الباحث الذي يدون ما يراه وما لا يريد ان يراه في بلاده بطريقة تتيح لنا ان نعرف ما يجب صنعه ، وما علينا ان نزيله من الاشواك في دروب التطور . وقد استخدم سابا في كتابه ينبوعا صافيا من المادة العلمية الجديدة وميزانا دقيقا يحدد فيه معرفة اوضاع المدينة العربية في وقتنا الحاضر . ويقف الكتاب بجميع اوجه البحث فيه الى جانب العلم والتراث العربي الاصيل .

وقد حاول سابا ان يبين ان السير في المسالك الحضارية لا يتم الا بالطريقة العلمية ، وهي التي تقول لنا دوما كيف ينبغي ان تتفاعل الاشياء بل كيف تتفاعل فعلا ، وهكذا نراه لا ينثر الافكار في اطار من الحديث التاريخي او النظريات المعقدة بل يشير الى الطريق ويحدد ما تحتاجه الدول العربية في رحلة التطور .

يضم كتاب « النمو الحاضر للمدينة العربية » ٨٥٠ صفحة ، وفيه ثمانية اجزاء ، يطالعنا الجزء الاول منها بصفحات من الرسوم والصور ، ونقف فيه على رسوم عدة بريشة المؤلف تتسم بالطابع الفني الخالص ، ونجد في مجموعة هذه الصور الفوتوغرافية والرسوم ــ كما جاء في مجموعة ستريكر في ثلاثينات هذا القرن ــ نوعا من القصص المرئية عن المدينة العربية في الماضي والحديث ، تحدثنا خيرا مما يحدثنا اي جدول ارقام ، فهذه الازقة القديمة والمآذن العالية ، والزخرفة العربية الاصيلة ، واسوار البيوت وابراج القصور ، والمراكز المدنية الحديثة ، كلها تعبر عن تركيب المدينة العربية المتشابك ما بين القديم والحديث

(١) نال هذا الكتاب سنة ١٩٦٤ احدى جوائز « جمعية اصدقاء الكتاب في لبنان » وكانت الجائزة مقدمة من بلدية بيروت .

بما فيها من المفارقات العجيبة الناشئة عن الخلط بين التراث العربي وكل ما في هذا العصر من جديد . ومن هذه الصور والرسوم والقول الانيق الذي حولها نرى انه كان في خلد سابا ان يقول : أليس تراثنا العربي الاصيل خيراً من الجديد والفن المعماري المعلب ؟

وفي الجزء الثاني احد عشر فصلا تبحث في المدن العربية واساليب تكوينها من الناحية المعمارية والمدنية والاقليمية والاطوار التي مرت فيها حتى الان . ويسلط سابا الاضواء تحليليا في هذا الجزء من كتابه على القوى المعاكسة التي ادت الى الاخطاء التنظيمية في البلاد العربية، ونجده يقول في السياق ما معناه : ((لم يكن الاندفاع الجنوني للبناء في العالم العربي ، وخاصة خلال الخمسة عشر عاما المنصرمة ، سوى طمس او استئصال لشافة الاثار القديمة ذات الاصول السليمة ، العظيمة للفن المعماري العربي بكل تكوينه العضوي وروحه المحلية ومزاياه المرغوبة العملية ، وهكذا تدهور الفن المعماري العربي ـ وفي غفلة عنا ـ الى تلك الدرجة الخالية من الاصالة المنقولة في تصاميمها عن الغير)) .

ويرجع سابا اسباب ذلك الى سقوط العرب ضحية تحت العوامل والمؤثرات التكنولوجية والانتقالية والتوسعية لكل الاخطاء والخرافات التي تنخرط في سلك التفاهم السطحي وتطبيق المظاهر والافكار التي تستتر وراء ما يسمونه فن العمار او تنظيم المدن الحديثة .

ويستمر سابا في نقده ويعطينا صورة آفة حضرية من خلال تنقلاته في العالم العربي حيث نشاهد ما يقع للاغلبية من المدن العربية الكبرى من عدم تماسك ، يدعو الى تحليل البلدة العربية القديمة تحليلا علميا دقيقا من اجل ان تنتج في طور التنظيم والتصميم القادم مدنا عربية جميلة تلائم تراثنا ومؤثرات طبيعة بلادنا المديدة . وهكذا يعلن دعوته للحفاظ على الطابع العربي الهندسي لانه يرى ان التقليد الاعمى والنقل اللاعلمي سيؤذيان العرب ويضرانهم في بناء بلادهم ومدنهم واقتصادهم ودعوة سابا الى الطابع العربي الاصيل ليست دعوة تنكرية للحديث لانه مع التجديد المبني على الاسس العلمية السليمة في اطار التراث العربي ، وضد النقل المبتذل الذي لا اصالة فيه . ويجد سابا ان قليلا من الناس قد ألموا بآراء ابن خلدون في تخطيط المدن وتنظيمها وفي فن العمارة وفي الهندسة وفروعها المختلفة . ويسرد لنا في كتابه بعض افكار هذا العالم العربي التي تنطبق على روح العصر الحالي الى حد ان الانسان يعجب ويدهش لمخططي العلوم الاجتماعية الذين لم ينتبهوا لها . ثم يزداد تعجبا واندهاشا للمؤرخين الذين لم تشغلهم افكاره وآرؤه في العلوم بمثل ما شغلتهم افكاره وآراؤه عن ضرب الرمل والسحر . ويقدم لنا سابا في كتابه مقتطفات من مقدمة ابن خلدون التي تحدث فيها عن البناء وتخطيط المنازل وابعاد الاشياء الضارة عن المدن واعتبار الظواهر الجوية وغيرها من العوامل المهمة لاختيار المواقع السكنية ، وعن المآثر الهندسية غير المعروفة نسبيا والتي اخذ العرب على عاتقهم بناءها ، وعن ربط الاسس الاقتصادية مع الحجم الحضري حيث تنبأ بوقوع تلك التكتيلات الهائلة مثل لندن وطوكيو وبرلين وباريس وغيرها . كذلك نجد ان ابن خلدون قد راى ان تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرزق لاهلها ونفاق الاسواق انما هو تفاضل في عمرانها في الكثرة والقلة . ويختتم سابا حديثه عن ابن خلدون بأن افكاره وملاحظاته التي دونها في مقدمته منذ قرون بدقة مدهشة لا تزال تنطبق حتى يومنا وبالذات على عالمنا العربي ، وبهذا يقول سابا مرة اخرى ((من المدهش ان نتنكر للاسلوب العربي القديم في فن العمار ونمحو الشخصية العربية ، بعدما كنا ائمة في هذا المضمار !)).

وفي الجزء الثالث من الكتاب عرض لدراسات مختارة تتعلق بتنظيم وتخطيط المدن والاقاليم في الاردن والكويت ولبنان وليبيا وفلسطين والسعودية وتونس . ويلاحظ في هذا الجزء تقديم المؤلف لبعض الدراسات الاستشارية والقرارات والمقالات التي وضعها او شارك في وضعها لتنظيم المدن في البلاد العربية ، ومنه نستخلص بسهولة ان هناك امورا كثيرة يمكن تحقيقها او تطويرها في البلاد العربية كحالة السير التي يعتبرها سابا مهزلة في بعض المدن ، وكذلك الشوارع الضيقة والنقص الفاضح في المتنزهات والحدائق والملاعب العامة ، وانعدام النظام في الشوارع ، والضجة التي تسود الاحياء السكنية وغيرها من المشاكل الاخرى التي بسببها يدق سابا اجراس الخطر من اجل انقاذ المدينة العربية من مستقبل مظلم وخطير ، ولا يرى الا بالتخطيط العلمي وسيلة تيسر سبل الانماء المنظم ، ويعتقد جازما بأن اتباع هذا التخطيط سيؤدي الى النفع الاجتماعي والاقتصادي للجماهير العربية ، ولهذا يتناول بالجزء الرابع بحث النظريات المتعلقة بتنظيم وتخطيط المدن وامكان تطبيقها في البلاد العربية لخلق بيئة عملية وبهيجة لاسكان الملايين التي تتزايد سنويا في البلاد العربية . وهكذا يربط بدقة واتقان ما بين المدينة والمشاكل الديموغرافية التي تهيمن في اغلب الدول العربية . ولهذا لا يتردد في الجزء الخامس ان يقدم بعض الابحاث التي نشرها في فترات مختلفة من حياته حول هذه الموضوعات التي تدرس السكان ومشاكلهم في المدن والارياف حلها .
وفي هذا المجال يقول : ((... ان المدينة في الاساس ينبغي ان تكون المكان المناسب لاجتماع الكائنات الانسانية ، فاذا كان كيان المدينة العام ومفهومها موجهين بحيث يعملان على تعزيز شتى انماط المجتمع الانساني والسمو بها وتشجيعها ، فتعتبر تلك المدينة اذ ذاك محققة لغرضها !)) .

ويهتم الجزء السادس من الكتاب ببحث وتحليل نقدي لفلسفة التكوين المدني في البلاد العربية ، ولم يغفل المؤلف عن تقديم الاقتراحات اللازمة في هذا الشان من اجل الارتفاع بالهندسة المعمارية العربية الى أعلى المستويات التي تليق بتاريخنا وتراثنا لخلق بيئة حضارية وهندسية جديرة بذلك التاريخ والتراث ومن اجل ايقاف الانحراف الهندسي المعماري المعاصر الذي يكاد يشوه مناظر المدن العربية .

وفي الجزء السابع اسئلة متعددة يضعها المؤلف ويجيب عنها بنفسه، منها الى اين يسير التخطيط الهندسي في البلاد العربية ؟ وما مستقبل المدن العربية عام ٢٠٠٠ ؟ ومنه نعلم ان التخطيط الهندسي حديث النشأة في البلاد العربية وان الكتب التي تتحدث عنه في بلادنا ما زالت نادرة وان شطرا كبيرا من تطبيقه فيها ما زال في طور التنبؤ * وعندما يتحدث عن المستقبل يدعو الى العمل بعقلية الباحث ، وان نركز دراساتنا في خلق المستقبل على البحث والاختراع اكثر مما نركزها على الحلول المعلبة والافكار المجمدة وتصاميم التطوير المستوردة.

ولم يغفل سابا في الجزء الثامن من كتابه ان يتحدث بأفكاره الختامية عن فلسفة التنمية العربية في جميع المجالات الاجتماعية والاقتصادية والحضارية . واذا بنا نستنتج في نهاية المطاف ان الهندسة في كتابه ليست سوى حجر القمة في هرم المشاكل والموضوعات التي اثارها ، فهو يبحث في كل شيء ولا يقول الا الحكمة والصواب . وفي نهاية الكتاب ما يزيد على ٦٠ بحثا له ولغيره من رجال الهندسة وعلم الاجتماع وتنظيم المدن ، توفر للقارىء مصادر لمختلف النظريات والاكتشافات التي عمت هذه العلوم في العصر الحديث .

ويجدر بي ان اؤكد في هذا المقام ان هذا الكتاب الجامع خير ما ظهر في البلاد العربية حتى الان في الدفاع عن التراث العربي . والحق انه ليس من كاتب يمكنه ان يغوص في مثل هذه الموضوعات ثم يعالجها كما عالجها سابا باسلوبه الفريد وخفة ظلة وبراعته ، وهذا ما يجعلني اكرر ما قلته في البدء : ان سابا يستحق التقدير وتستحق اللآلئ من حروفه التي لم تنشر بعد ان ترى النور ، على أمل ان تنشر وان يخلد صاحبها بعد الموت)) .

نموذج من نثره : ظل الدكتور شبر معجبا بابن خلدون وتقديرا منه لهذا العلامة العربي أقدم على ترجمة ((مقدمته)) الى الانكليزية

وكتب عنه الفصول المطولة ، ولقد اعجب الكثيرون بما كتبه عن هـذا الفيلسوف العربي وكيف ابرزه كمرجع مهم بين اصحاب النظريات في قطاعي العمران والتنظيم وفي العلـوم الاجتماعية والصحـة العامـة ، ودونك بعض ما كتبه عن هذا العملاق العربي :

« منذ ان كان الانسان ، كان التطور ، لان الانسان في جوهـره حركة مستمرة ومبدع لا يقف عند حد . فمن العصر الحجري الى يومنا هذا نرى ان الانسان في تطور مستمر وان من لا يسير في طريق التطور يفقد شيئا من انسانيته التي تريد منه ان يعيش مع عصره .

وابداع الانسان لم يقف عند اشياء معينة ولم يقتصر على ضروريات الحياة التي اوجدتها الاجيال السابقة ، ولكن ابداعه تعدى الضروريـات الى الكماليات التي اصبحت تتطور هي ايضا حتـى اصبحـت من الضروريات وفي مقدمتها اقامة منزل السكن ضمن هيكل المدينة على أسس حديثة . فالانسان الجديد لا يقبل ان يقصر في مضمار تنظيـم السكن ، التنظيم الذي تظهر آثاره في تاريخ المدنية منذ القديم : منذ الامبراطورية الصينية الى مصر فرعون الى الدولة البابلية الى عهـد اثينا الزاهر الى عظمة روما القديمة الى منجزات العرب الجميلة *

هذا الانسان الطموح ، المتطلع دائما الى فوق ، مضطر اليوم اكثر من أي يوم مضى ، الاهتمام بالتنظيم السكني العلمي نظرا لتطور الحياة تطورا سريعا ، ان في النواحي الاجتماعية او الاقتصادية أو الصحيـة التي ، ان لم يتعهد الانسان معالجتها بعقله ويده في كل بقعة من بقاع الارض ، تهدد تطور الحياة وتقدمها وفقدت الانسانية في جـزء منهـا معناها الاصيـل .

والتنظيم السكني العلمي او كما اصطلح العلماء علـى تسميتـه « بالتنظيم السكني المدني » كي يشمل جميع المتطلبـات السكنيـة ، يتطلب دراسات كثيرة منها احصائية ومنها اجتماعية ومنها صحية ومنها اقتصادية عامة ومن ثم هندسية فنية ... ومثل هذه الدراسات تتطلـب مجهودات كبيرة لا يمكن ان يقوم بها الفرد الواحد ، انما يقتضي للقيام بها انشاء اجهزة كاملة من الاختصاصيين يتعاونون على القيام بوضـع مشاريع التنظيم ودرس نواحي الحياة وتطورها ، آخذين بعين الاعتبار جميع المسائل التي لها علاقة وثيقة بالحياة . على ان يكون وضع هـذه المشاريع مستندا الى الدقة التامة التي توافق الحاضر وتكـون قابلـة للتحويل والتبديل اذا اقتضى التطور نفسه ذلك بصورة معلومـة او مفاجئة ، نقول مفاجئة لان هذا القرن امتاز بالمفاجآت العلمية التـي اصبح لها تأثير كبير على مستوى الحياة البشرية .

فاذا اخذنا مثلا تطور الحياة السريع في العشر سنوات الماضية في الكويت نسبة لتطورها في العشر سنوات المقبلة يتوجب علينا والعالـم على باب اكتشافات نووية ذات تأثير كبير على طريق الحياة البشرية ، ان نرتقب مفاجآت تقتضي تصميما للحياة قابلا للتعديل سنة بعد سنة .

فمن هنا وجب القول ان على واضع مشروع ما للتنظيم السكني ان يكون من اصحاب الحس الفني والحس المستوحى من مبادىء انسانية هدفها اسعاد الانسان ورفع مستواه في الحقول الاجتماعية والنفسانية والروحية والتراثيـة .

ووجب ان يكون واضع التنظيم واسع الاطلاع على شؤون البلاد التي ينظمها ، ان يكون ملما بفلسفة أهلها ، عالما باعتقادات وعـادات وتفكير سكانها . عليه أن يكون ، بكلمة واحدة ، واحدا من ابناء تلـك البلاد ، وان يتيسر له العون الذي يساعده على معرفة كل ما يتطلبـه مثل هذا العمل الكبير . فمشاريع التنظيم لا يمكن ان يقوم بها رجـل فرد ولا يمكن لانسان ما ،مهما كان متوقد الذهن ذكيا مطلعا ، ان يلـم الماما كافيا بجميع نواحي العلوم المتوجب توفرها عند وضع مشروعـات الاسكان والتنظيم * وقد قدرت احدى الجامعات العالمية ان الشخص الذي يريد ان يتخصص في قضايا السكن والتنظيم ، ويلم بمختلـف نواحيها الماما تاما يجب ان يقضي عشرين عاما علـى الاقـل فـي الجامعـات .

ليس كل هذا بغريب اذا علمنا ، بالاضافة الى ما سبق ، ان كـل تنظيم يجب ان يشمل ايضا درس امكانيات تصنيع قسم من البـلاد وابقاء قسم آخر يعد للزراعة كما يجب ان يدرس تاريخ البلاد مدينـة مدينة ، قرية قرية ، عائلة عائلة ، لمعرفة العناصر التي تكون المنطقة .

هكذا يجب ان يتم التنظيم : بالعلم والفن والبحث والفلسـفة والحكمة والوقت الكافي والجهاز اللازم ليتوفر في باديء الامر علـى القائمين على العمل التنظيمي جميع الامكانات كي يفكروا قبل كل شـيء بالمسائل الاساسية والحيوية والواقعية . يجب ان نعمل بعقلية المحارب الباحث ، ويجب ان ترتكز دراساتنا على الحس والاختراع اكثر ممـا ترتكز على ان نعتمد على الحلول المعلبة والافكار المجمـدة والتصاميم المسـتوردة .

لذلك يتوجب التفكير بدرس تنظيمي شامل لكل بلـد عربـي . فالبلاد العربية جميلة بمناظرها ، فريدة بمميزاتها ، كبيرة بامكاناتها ، ومحتاجة الى تنظيم سكني سريع وشامل ، يكفل بقاء جمالهـا وتنظيـم حياتها على أسس حديثة ، مستفيدين من تجارب البلاد الراقية التي سبقتنا في هذا المضار لنجعل من مدننا مثال المدينة الحديثة المحتوية جميـع اسباب الحياة والازدهار ومن بلادنا آية الفن والجمال والراحة ومن ريفنا مورد الانتاج والحياة الكريمة .

وركيزة كل هذا السكن ـ الوحدةالسكنية في حد ذاتها ، والوحدة السكنية متكررة على وجه البسيطة . فمنها تنتج المدينة وفـي المدينـة البيئة ومن البيئة تنبثق المدنية والمدنية هي مقياس الرقي والحضارة والتقـدم ! » .

٢ ـ محمد حسن علاء الديـن

أطلق « أديسون » كلمة فاض بها قلبه الانساني ، فهام بها « محمـد حسن » هيام الانسان بربه ، واتخذها نبراسا هي : « ليس في هـذا الوجود من نحني له الرأس اجلالا عن حب وتقدير الا صناع الـزاد للانسانية ! » .

ولد « محمد حسن » في مدينة الاسكندرونة المغصوبة عـام ١٩١٧ لوجود والده قاضيا شرعيا هناك ، وما لبث ان نقل ابوه قاضيا لمدينة طبريا بفلسطين فدخل « محمد حسن » مدرستها الابتدائيـة وتأثـر بادب وشخصية استاذه عازر خوري . وبعد حين التحق ب « روضـة المعارف » لمؤسسها المرحوم الشيخ محمد الصالح وانهى فيها الدراسة الاعدادية (١٩٢٧ ـ ١٩٢٩) وقصد « كلية النجاح الوطنية » بنابلس وامضى فيها سنة والتحق بالجامعة الاميركية في بيروت ودرس فيهـا سنة واحدة (١٩٣٥ ـ ١٩٣٦) *

في مدينة طبريا ذات الفتنة والجمال بدت أولى زقزقاتهالشعرية ، وفي سن باكرة رثى قطة فقدها ، وبعد ان شب عن الطـوق جمعتـه الاقدار في بيت المقدس بالشاعر الفلسطيني الشاب مطلق عبدالخالق ، فامتزجا روحا وميولا . وبعد انتقاله من « روضة المعارف » الى « كلية النجاح الوطنية » شارك في الحركة القومية عن طريق جمعية اسسـت في يافا تحمل اسم « جمعية الاتحاد العربي » وكان اعضاؤها يعقـدون اجتماعاتهم في بيوتهم خشية العسس والارصاد . وبعدما توفي المرحوم سعد زغلول في عام ١٩٢٧ رثاه « محمد حسن » بقصيدة مؤثرة كمـا وضع نشيدا لمؤتمر الطلبة العرب الفلسطيني منه قوله :

يـا هـلال البشر يمـم نحـو مـن
غـادروا الدنيـا وهـم أسـرى المحـن
كـي يـذودوا عـن حماهـم والوطـن

وشرع في نشر نفثاته الشعرية وتعليقاته السياسية على الحركـة الوطنية في الصحـف الفلسـطينية وخص بها « صـوت الحـق »

و « الاقدام » و « الصراط المستقيم » اليافيات وكان للمناضل الجريء حمدي الحسيني (من اسرة الحسيني الغزية) يد في تشجيع انتاجه الفكـري ...

وليستقيم اسلوبه ويستفحل شعره اقبل على المطالعة في دواوين الشعر وكتب الادب والبلاغة ، وبدأ تفكيره يتفاعل مع النتاج الغربي ، فاطمأن الى أدب كل من هـ. جـ. ولز واسكندر بوشكين وليو تولستوي وفيكتور هوغو وفولتير وبودلير والفريد دي موسيه ، كما أكب على مطالعة الفصول التي كانت تدبجها اقلام خليل السكاكيني وشكيب ارسلان وسلامه موسى وطه حسين ومحمد حسين هيكل ، ومال بكليته الى ما كان يكتبه الناقد الساخر ابراهيم عبد القادر المازني وعملاق الادب عباس محمود العقاد ، وواصل مطالعة اعداد « السياسة الاسبوعية » .

وفي تلك السن شن حملة على المؤسسات التبشيرية في الشرق الادنى وكشف عن غاياتها واهدافها ، ونشر ثلاث مقالات في « الصراط المستقيم » اليافية حلل فيها المهام الاستعمارية التي اضطلعت بها تلك المؤسسات الاجنبية .

وربطت بين الشاعر علاء الدين والشاعر توفيق اليعقوبي المكنى بـ « أبي المحاسن » اوصر من المودة ، وتطارحا القصائد في وصف الطبيعة الساحرة في ريف اللواء الجنوبي .

وقصد شاعرنا مصر وصرف فيها ردحا من الزمن ثم عاد الى حيفا ووصل حبله بحبل صنوه الشاعر مطلق عبد الخالق .

وشد الرحال الى دمشق ، ثم عاد الى فلسطين واسهم في تأسيس الفرق الكشفية ومحاربة الاستعمار وتغنى بجمال الطبيعة في «الكرمل» عروس الشمال .

ونادته جبال لبنان ليداوي ندوبه ويبلسم جراحه فقصد «عاليه» مصطافا كما زار لبنان الشمالي وعاش مفتونا بسحره وجماله ، والقى في جمعية « العروة الوثقى » في الجامعة الاميركية ببيروت قصيدة ناجى فيها نهر (النيل) وأخرى ناجى فيها (الشهداء) وثالثة بعنوان (مجد الخلود) متغنيا ببطولات الثوار العرب في فلسطين .

وبعد عودته الى فلسطين نشر انطباعاته وتأملاته في صحيفة « الدفاع » اليافية كما نشر قصيدة بعنوان « وقفة على ضفاف الاردن » وقد أهاب فيها بالشعور القومي لمقاومة الاستبداد وقصيدة بعنوان « فجر الحرية » وفيها ناجى الحرية بمعناها المطلق .

وخلال سني صباه الناضج زارت يافا ام كلثوم لتغني على مسرح « قهوة ابي شاكوش » فالقى محمد حسن ابياتا طربت لها كروان الشرق ونشرتها جريدة « فلسطين » بالاطراء والتقدير .

وبعد انتهاء الاضراب الفلسطيني الشهير عام ١٩٣٧ غادر فلسطين الى أوروبا وامضى ١٨ شهرا بين باريس وتور ناشدا الحرية في مقاهيها الشعبية وطعامه النباتي في مطاعمها ونظم شعرا بعنوان « حرب الجمال » و « الجوع » ! .

وعاد الى فلسطين وشارك الثوار العرب في حربهم مع الانكليز واليهود ، واودع سجن طولكرم ، وبعد الافراج عنه ظل في قضاء بني صعب عامين ونصف عام ثم قصد حيفا واسهم في تحرير مجلة « السمير » لمؤسسها منير حداد ، ومن شعره المنشور فيها « فجر الحرية » و « القلب القافز » ومن نثره فيها بحث مسلسل عن مشاهير الموسيقيين العرب ، قدم فيه صورا تحليلية لشخصياتهم كما ورد وصفها في كتاب « الاغاني » .

ومن معرباته عن الفرنسية قصيدة « لوسي » للشاعر الفرنسي الفريد دي موسيه ومطلعها :

« يا أصدقائي :

عندما اموت ... ازرعوا صفصافة في المقبرة التي سادفن فيها ، لانني اهوى ورقها الاخضر ! .

وان ظلها سيكون خفيف الوطأة على قبري ! » .

وبعد نشوب الحرب العالمية الثانية قصد يافا وانضم الى قلم تحرير « الصراط المستقيم » ونشر على صفحاتها الكثير من شعره ، وظهر بحث بقلمه في مجلة « الثقافة » حول كتاب « كنت سجينا من سجناء الترك » وبحث اخر حول نتاج الكاتب الانكليزي هـ. ج. ويلز في كتابه « سعيا وراء المياه الحارة » وبحث عن نتاج توماس هاردي في كتابه « رجوع المواطن » ونشر في صحيفة « الاقدام » اليافية من شعره « غادة كالبنفسج » و « متى ؟ » و « لا تغيبوا عن عيوني » .

وفي اضطرابات عام ١٩٤٧ ، أي بعد صدور قرار التقسيم ، خرج الشاعر الى رام الله ونشر قصيدة « المناضل » في صحيفة « النسر » الاردنية ونزح الى عمان ودخل الجيش العربي الاردني وخدم في الزرقاء وراح ينشر شعره في جريدة « الاردن » واخيرا سرحه المسؤولون عن الجيش من الخدمة وعاش في بعض فنادق عمان في عوز وفاقة وعمل مصححا في جريدة « الاردن » وزاول تعليم العمال وموظفي الشركات والطلاب ، ونتيجة لوشاية دخل سجن عمان المركزي وحكم عليه بالاقامة الجبرية في مدينة القدس ونشر بعض منظومه في مجلة « المهد » البيتلحمية .

وخلال وجوده بين قضبان السجن المركزي في عمان صدرت دراسة أدبية عنه بعنوان « شاعر الضفتين » بقلم ابراهيم عبد الستار .

وعلى أثر الحوادث الدامية التي جرت في لبنان عام ١٩٥٨ الصقت به تهمة فحوكم امام محكمة عسكرية وحكم بالسجن ثلاثة اعوام ، فاكب على القرآن الكريم وتفسيره .

وبعد ان اتم مدة الحكم فرضت عليه الاقامة الجبرية بالقدس لمدة عام ، وما لبث ان عاد الى عمان ونشر بعض قصائده في صحيفة « عمان المساء » ونشر بحثا في فلسفة القرآن الكريم بعنوان « الثقافة القرآنية » في مجلة « الافق الجديد » المقدسية .

من اثاره القلمية : من الاثار القلمية المطبوعة التي وقفنا عليها :

١ ـ المرسحية الشعرية امرؤ القيس بن حجر ـ ١٩٤٥ .
٢ ـ تحية الميلاد (شعر) ١٩٦١ .
٣ ـ شعار الوحدة العربية ـ ١٩٦٣ .
٤ ـ النبوة والقومية .
٥ ـ شعراء فلسطين العربية .
٦ ـ يقين الحب .
٧ ـ من وحي ماساة ١٩٦٧ (نظما ونثرا) ١٩٦٧ .
٨ ـ ارادة وقدر ـ (مجموعة شعرية) ١٩٦٨ .

نموذج من نثره : « اجواء النبوة ! اجواء القومية ! وهل عاش (الشرق) أيام عاش ، الا من ذينك الينبوعين ؟ وهل دوى (الشرق) أيام دوى ، الا في اوداء وجبال ذينك الحقلين ؟

ويتساءل المتسائلون : « واين الارتباط بينهما ؟ هل برهن الزمن على انسجامهما معا ؟ ام انها رطانة براقة ، تريدونها لتتشبهوا بالامم الاخرى ؟ » .

واجيب : « وهل البداوة العربية الا البرهان الدامغ على نقاء تيك القومية ؟ وعلى اصالتها في الرحاب وفي الدم وفي اللسان ؟ وما البطاح ؟ وما الرمال ؟ وما (نفود) ؟ وما (نجد) ؟ وما (سيناء) ؟ وما (الكرمل) ؟ وما (عيبال) ؟ وما (البحيرة) ؟ وما العاصي ؟ وما (وهران) ؟ هل هي الا واحات النبوة الموجهة ؟ وهل هي الا سمار البداوة وغبوقها وشلالها ؟ .

ولبس عباءة وتقر عيني   احب الي من لبس الشفوف !

البساطة والعمق هما روح البداوة ، وهما هما منطلق النبوة !

والقومية ثمرة النبوة والبداوة ، ثمرة البساطة والعمق ، واطيب بها من ثمرة ، واطيب بنواتها من نواة !

البداوة خلقت لنا (خولة) و (معبدا) و (اسحق) و (وحيدة) !

الربيع خلال الشتاء

الى الصغيرين الحفيدين نسيم وفلافيو من وحي الزيارة كانون الثاني وشباط ١٩٧٠ اذ جاءا من البرازيل ثم عادا اليها .

★

كحلم تقضى كطيف عبر — تمر الليالي وتحلو الذكر
تمر الثواني بلون الاماني — نشاوى سرور هنايا سمر
وعمر السرور كعمر الورود — غني المعاني كثير القصر

قضيت ربيعا خلال شتاء — فعاد خريف ينضير الزهر
اداعب ذاتي بشخص سميي — واحيا بوهمي زمانا غبر
ويحكي فلافو بصوت جميل — كشدو الكنار وهمس الوتر
فيهنا قلبي وتنعم عيني — وأحسب اني بفجر العمر
حبيب الي انحناء السنين — لترعى حفيدا بوحي الصغر
وتغدو فراشا يرف عليه — بمثل الجفون تصون النظر
فقرب الصغار نعيم صغير — يطيب الوجود ويقصي الضجر
فينسى الكبار هموم الحياة — ويجلو الصفاء غيوم الكدر

وطار السمي وطار اخوه — بعيدا بعيدا بدنيا السفر
فطار هنائي وغص رجائي — وراحت ليال وجاءت أخر
فعاد انتظاري يهز قراري — فبت كئيبا اسير القدر
اكفكف دمعي وأطوي جناحي — وارقب فجرا جديدا أغر

نسيم نصر

رقعة من الارض متماسكة ، ذاك هو الوطن العربي ، من بحر الظلمات الى سواحل الخليج ! وسل التاريخ ينبئك انها ارض العرب ».

نموذج من شعره :

هجرت الاذى ، واستفت ند المحبة — وقاومت اشراك الخنى والمضلة
تركت الحمى ، وارتدت ربعا مناديا — به راية نصت وهتف فتوة
صرعت ملاك الظلم في «مكة» التي — يرصعها الركبان في كل حجة
سلاما ، نبي الله ! من قلب أربع — تناجيك في عيد ، لاشتات أمة
أردت لها التوحيد ركنا موطدا — فناءت، وحادت، ثم هامت وضلت
أردت لها ، مندى العروبة وموئلا — يجنبها في الروع أهوال نكبة
فمادت بها الاهواء شرقا ومغربا — وصال بها خلف وبيل المغبة
وعادى بنوها العدل دربا وسدة — ومالوا الى استجداء قرم ودولة
بكى العدل مذ بث النفاق جيوشه — يصيد بها قانون رأي وذمة
ترامت دمى الطاغوت، تهوي بفيلق — اقام حقوقا ، كم بها البيد دوت
حقوقا عليها قام مجد مؤثل — به اعتز فرسان وقناص بجدة
اذا ما غراب الاثم عاث بوحدة — والفى انصياعا قل : ذرى الارض ذلت

عمان ـ الاردن

البدوي الملثم

الطفولة

آه .. ليت الجيران يعيروننا .. طفلا

لولا ازاهير الربيع
لاقفرت دنيا الربيع
ومشى الصقيع بأرضنا
ما نفعها دنيا صقيع
ساد السكون المنزل الغافي
على الدرب العتيق
كبر الصغار .. فلا صراخ
ولا شجار .. ولا زعيق
لكنما يا طيبهم يتخاصمون وبلحظة يتصالحون
لا يغفرون لانهم لم يحقدوا
وهل الملائك يحقدون .. ؟
ساد السكون المنزل الهادي فلا ضوضا مثيره
العابهم رفعت واقفلت الخزانات الصغيره
بالامس كانت ها هنا وهناك انواع كثيره
ودمى محطمة .. وتبسم
للطفولة بافتخار
بالامس يا فوضى الصغار
نعمنا طول النهار
حتى اذا ناموا ورانت بسمة الطهر النضيره
وبدوا ملائك في الاسرة
بعد ان كانوا شياطين كبار
رحنا نقبلهم ونجثو
ضارعين ليكبروا

كبروا فما في بيتنا
فوضى ويضنينا التعب
لكنما القنديل شح ضياؤه وخبا اللهب
الكرمة الخضراء تنقصها عناقيد العنب
جفت مياه الجدول الصافي فما عادت تغني
لم يبق بعد جفاف جدولنا
سوى المجرى فحسب

كبر الصغار وانما
يا ليت ذاك الامس ردا
واشوقنا ان يملأوا ايامنا تعبا وكدا
واطيبهم ان حطموا
العابهم عفوا وقصدا
واطيبهم ان زينوا
ارجاءنا فوضى وضوضا

انا ليؤلمنا من الامس القريب
أنا انتهرناهم لنسكت
ضحكة الطفل الحبيب
ضحكاتهم رمز السعادة والطهارة والهنا
ضحكاتهم احلى الهدايا المرسلات من السما

كبروا وامسى المنزل الغافي
نظاما في نظام
كالساعة الكبرى العتيقة
فوق حائطنا تتكتك بانتظام
حملتهم ايدي الزمان لغير دنيانا الرتيبه
ومضوا خفافا في اهابهم
مضي عزم الشبيبه

ابقوا لنا ملل الكهولة والسام
ورسومهم ترنو بصمت وابتسام
وعيوننا ترنو الى باب الحديقه
آذاننا تصغي لوقع خطى عتيقه
ساعي البريد .. اتراه يحمل منهم
خبرا .. رساله .. ؟
كل الاماني بين اسطرها الرقيقه

كبر الصغار وانما اين الطفولة اينها
في حضننا عبق وزهر يا رعى ايامها
طارت سراعا كالخيال كأنها حلم يمر
اترى هنالك من يعيد لنا
من الاحلام ظلا .. ؟
اترى هنالك من يعير
المنزل المشتاق .. طفلا .. ؟

الرابية ـ لبنان
اسمى طوبي

كثيرا ما نصحت نفسي بالتعقل وتغيير هذا السلوك المنحرف . لكني لم أكن املك من أمر هذا النصح شيئا . لا سيما وان الجامعة تلفظنا لفظ النواة طيلة اشهر الصيف ، فلا نملك الا الضياع في شوارع القاهرة، فنقتل وقت الفراغ بالجلوس على المقهى او الذهاب الى السينما ، لكننا دائما نكون فريسة للفراغ . وكم من مرة منيت نفسي بتغيير سلوكنا – أنا والشلة – او سلوكي انا على الاقل ، لكن شيئا من هذا لم يحدث .

في هذه الايام حدث شيء ذو بال ، فقد تعرفت على فتاة جذبتني بصمتها وهدوئها . كنت قد انتهيت من امتحاناتي . اندهشت حين قالت لي اختي أنها سكنت حديثا بجوارنا، دهشت لاني عرفت ذلك متأخرا ، وربما للامتحانات وتقوقعي في غرفتي يد في هذا ، فان اقسى ايامي هي تلك التي اكون فيها على شفا حفرة.

كنت افكر في وسيلة ما اتقرب بها اليها ، وهل يعسر علي شيء ؟! . انا الذي شهد لي الملاعين بأني اقدر من في الشلة ، فكان هذا يزيدني تعاظما وكبرا .. لكني عجزت عن التقرب اليها ، فالفتاة محافظة الى درجة كبيرة ، او هكذا خيل الي .. وتتمتع بهدوء بالغ ، وربما تتسم بالخجل ايضا . وهي على عكس من اعرفهم من فتيات تتمتعن بالجراة والشقاوة ، وهذا ما جذبني اليها .. فقد مللت هذا النوع الصارخ ، واصبحت اطلب شيئا جديدا ، ربما يعمل على تغيير هذا السلوك الذي تصر أختي وتوافقها أمي على تسميته بانحراف الشباب .. اما ابي فكان يلوي شفته السفلى ولا يزيد على قوله « طيش شباب » شيئا ، واجده يزهو بي ، وكثيرا ما قال لي « انت صورة من شبابي » .

احسست ان هذه الفتاة ستضع حدا فاصلا بين حياة اللهو والمجون وحياة الجد والاتزان .

تعرفت على أماني عن طريق أختي . زارتنا ذات مساء .. ردت على تحيتي بأدب مبالغ فيه ، مضافا اليه الخجل الذي تتصف به . لكن عينيها شدتاني اليها ، فقد احسست انهما شاطئا أمان من الممكن ان تحتضنا آمالي واحلامي وترعاهما . وبايجاز شديد ، وجدت في أماني كل ما اطلبه في النصف الاخر .. عيناها سوداوان ، وشعرها أسود فاحم ، ووجنتاها في لون القشدة المخفوقة في عصير الفراولة ، وشفتاها مثل حبتي الكريز . ملامحها جميلة جذابة . لكن شيئا حزينا يغلف هذه الملامح ، ولا ادري منشاه. وربما تكون مسحة الحزن التي تطوف كالغيم على ملامحها ، هي



بقلم حسني سيد لبيب

التي جذبتني اليها .

التقيت بالشلة بعد انتهاء الامتحان بأسبوع ، وكان كل منا يختزن في خاطره احاديث شتى يود ان يبوح بها ، لكن رغبتنا في ان نقول الكثير جعلتنا نلوذ بالصمت ، ثم تحللنا منه على الفور بحديث تافه عن الامتحانات والمزالق التي تردينا فيها .

ضقت بالحديث فأخرجت علبة الدخان وانا اقول في لهجة تتسم بالجد والتزمت :



– كيف حالكم أيها الحرافيش ؟ .

وهكذا كنا نسمي انفسنا ، والله أعلم وربما شخص اخر غيرنا يعلم ما الذي تعنيه كلمة « حرافيش » . باغتني مدحت وخطف سيجارة ، وتوقع الجميع ان اثور عليه ، وربما اصب اللعنات على اخلاقهم جميعا . لكن شيئا من هذا لم يحدث ، مما جعلهم يدهشون من هذا الاستسلام .. فتساءل فهمي :

– ما الذي دهاك ؟! . أأخلفت لك جيهان موعدا ؟ .

تمتمت :

– جيهان ! ..

ثم ما لبث ان ارسلت قهقهة عالية ، واجاب امين :

– لقد هجرها أيام الامتحانات ، ولكن يتوجب عليه ان يحدثنا عن علاقته بها في هذه الايام .

فصرخت فيهم :

– يا ملاعين .. اريد ان انبذ هذه الحياة ، واهجر الاستهتار .. يعني اريد ان اتعقل .

كانت الكلمات غريبة على مسامعهم . وكان من الصعب عليهم فهمها على الفور ، لا سيما انها صادرة مني . وقلب مدحت في الكلمات ، وتجهمت سحنته مثل حالته حين نورطه في لغز مبهم ، ثم ما لبث ان تحرر من تجهمه ، وصاح كأنه اكتشف كنزا :

– اتدرون ؟ .. انه يمهد لقصة حب جديدة .. فتاة جديدة تناسب حر الصيف ! .

وما ان سمعوا هذا التكهن حتى راحوا يتضاربون الاحاديث والتعليقات، ولم يشأ احد ان يسألني عن صحة هذا الزعم ، فلم يكن غريبا ان ابحث لي عن فتاة جديدة ، لكن الغريب هو ان اقول لهم مثل هذه الكلمات العاقلة ، كما أسماها فهمي.

تركهم بلوكون حسبما تشاء لهم الاهواء والخيالات ، وآثرت الصمت، محاولا خلاله ان استعيد صورتها في

مخيلتي ، وافكر في هؤلاء المساكين .. لا شك انهم سيدهشون حين يعرفون انني عاجز عن التقرب اليها .. ولا شك انهم سيندهشون حين يعرفون انها فتاة هادئة خجول .

ذت مساء ... تم آخر لقاء بيننا ، في شارع مهجور لا يسير فيه المرء الا للضرورة ، ولم اعجب لاختيارها هذا الشارع ، لما اعرفه من طباعها ومزاجها . قلت لنفسي : حانت الفرصة . واخذت اتدبر الامر سريعا .. اقتربت منها والقيت التحية :

ـ مساء الخير يا اماني .

حدقت في مرتبكة ، نظرت الى وجهي متفحصة ، ثم ردت التحية ، وهي مترددة ..

ـ الا تعرفينني ؟! .

فأومأت براسها قائلة :

ـ اجل اعرفك .. الست شقيق سعاد ؟ .

ـ بلى .. انا شقيقها .

وابتسمت ابتسامة مشرقة ، كان لها فعل السحر في نفسي . قلت لها :

ـ انا سعيد بهذا اللقاء ، فهل يا ترى انت مثلي ؟ .

صمتت ، وارتأيت دموعا تأتلق في عينيها ، فعجبت لامرها ، وظننت ان الوهم هو الذي جسم لي الدموع ، وربما يرجع هذا الى الحزن الذي اتخيله يطوف كالغيم على ملامحها المتناسقة . ولكن دافعا ما جعلني اسأل :

ـ اتبكين ؟ .

اجابت :

ـ ليست دموع حزن .. فان عيني تدمعان كثيرا .

ـ حتى دموعك .. جميلة .

قلت العبارة ، وانا اعني كل حرف نطقت به ، لاحظت القلق باديا على ملامحها .. توترت تصرفاتها ..

ـ يبدو اني ضايقتك .

ـ انا سعيدة بك .. انت اول انسان يجاملني .

ـ ليست مجاملة ، انها جزء من الحقيقة الماثلة امامي . صمتت قليلا ثم قالت :

ـ لقد اقتربنا من البيت .

ـ متى اراك ؟

قالت بلهجة سريعة :

ـ كما تحب .

ـ غدا نلتقي ؟ .

ـ ليكن بعد غد .

وتصافحنا ثم تقدمتني مسرعة نحو البيت ، فلاحظت عرجا خفيفا في ساقها اليمنى لا يكاد المرء يلحظه الا اذا دقق النظر ، شيء واحد اغاظني ، انه الجورب القاتم الذي يغطي ساقيها حتى حدود « التايير » الضيق . كانت كلماتها غير مشجعة ، لكنها لم تفقدني الامل في ان تتطور علاقتي بها .

وفي البيت ، قبعت وحيدا في غرفتي .. ادرت المذياع باحثا عن اغنية تروي جوعي العاطفي .. كنت انبش كعصفور جائع . وراودتني فكرة كتابة بعض الاحاسيس التي تكتنفني ، لكني سرعان ما احجمت عن تلك المحاولة عندما تذكرت محاولتي الاولى . فقد احسست بحاجتي الى التعبير عن نفسي .. فكتبت قصة .. لكن الحرافيش اخذوا يشبعون قصتي نقدا وتجريحا ، مما اسموه امانة النقد ونزاهته ، لكني وجدته تهجما وقحا على احاسيسي ومشاعري ، فمزقت اوراق القصة ، وقلت في انفعال :

ـ لا اراكم الله يوما تقفون فيه موقف الاستاذ مني ، يا ملاعين .

ومنذ ذلك الحين لم اكتب كلمة واحدة . وآثرت ان اعيش الحياة دون ان ارهق نفسي بالتعبير عن مكنونات مشاعري . لكني اليوم ، وفي هذا المساء الساحر ، اشعر بحاجتي الى ان افعل شيئا ، استبعدت فكرة الكتابة التي برقت في مخيلتي لحظة ثم ماتت . حاولت ان اغني ، قطعت الغناء عدة مرات لاصفر بفمي صفيرا لا ادري اهو للحن معروف ، ام جاء تعبيرا عن حالتي الشعورية ؟ . ووددت لو رقصت . كنت سعيدا الى اقصى حدود السعادة ، لكن ينغص سعادتي هذا الجورب القاتم الذي يغطي ساقيها الى حدود « التايير » الضيق عند الركبة . اتحرص اماني على ان تستكمل الصورة الحزينة ، فتصر على ارتداء جورب قاتم ؟! . اتحاول ان تخفي العرج الخفيف بوسيلة ما ؟! . ام هي محاولة لسد نقص تستشعره في نفسها ؟! .

جردت اماني في مخيلتي من جوربها القاتم ، وتمثلت لي صورتها الجميلة الساحرة . انا مللت الجمال الجسدي الصارخ ، وكل الذي اطلبه ، فتاة كاماني تستطيع ان تملأ في نفسي بئرا عميقة حفرها الحرمان العاطفي . وبرغم اتساق جسمها ، الا أن هذا كله ليس الحافز الذي شدني اليها ، انه طبعها الهادىء وسحرها الكامن في غلالة الحزن التي تطوف كالغيم على ملامحها المتناسقة .

رويت للحرافيش الاحاسيس التي تكتنفني ، ويبدو ان حديثي لم يلق منهم استحسانا ، وان كانوا قد تظاهروا بالانصات والاهتمام . اندفع فهمي بسخريته المعهودة يقول :

ـ متى الزواج ؟

سألني دون ان يعلق اهتماما قط على اجابتي . وربما دفعه الى هذا تظاهره بالانصات التام .

تحول موضوعي الجاد الى قفشات وتعليقات . نسوا تماما حكايتي مع الفتاة الحزينة ، او ربما تناسوها ، فقد همس حسين في اذني :

ـ بيني وبينك ، لا اصدق انك تحب .. انها احدى مغامراتك ولكن بأسلوب جديد .

ثرت عليه ، لكنه غاظني حين روى لي انتصاراته في مباراة الطاولة الاخيرة ، ووقف مني موقف التحدي ،

فقلت بصوت جهوري :

ـ لا اراكم الله يوما تشمتون في يا ملاعين .

في هذه المرة استطعت ان اهزمه ، واؤكد للجميع اني المنتصر دائما . ومثل التحدي الذي واجهني به ، وجدتهم يتحدونني اذا انا احببت حبا صادقا . لم يعيروا الامر اهتماما عندما كاشفتهم بأن الفتاة من نوع جديد لم أعهده من قبل . لكنهم ـ برغم كل ما قلت ـ لم يجدوا في الامر شيئا جديدا ، واصروا على موقفهم البارد ، يواجهون به حماستي وانفعالي .

حان موعد لقائي بها ، انتظرت طويلا ، فلم تأت ! .. ايمكن ان يحدث هذا ؟! . اتراها تكذب ؟! . أم انها تلعب بعواطفي واحاسيسي وتستهين برغبتي الحادة في اللقاء ؟! لاول مرة اشعر بالخيبة والهزيمة . لم يحدث قط أن اخلفت لي فتاة موعدا ! ، كما لم يحدث قط ان هزمني احد في الطاولة ، وحتى في مباريات الكرة بالكلية ، اكون النجم الاول اللامع الذي يعتمد عليه الفريق في احراز الاهداف . اشياء كثيرة تؤكد انتصاراتي ، فلماذا اتأثر بموعد بسيط كهذا ؟! .

موعد بسيط ! . تضاحكت في أعماقي من هذا التعبير الغريب ، وقلت في نفسي : ليس هذا تعبيرا حقيقيا عن الواقع الذي احسه .. فالله يعلم كم اعلق من أهمية على هذا اللقاء ، بل كم انا جاد في علاقتي بها .

سرت في الشارع بلا هدف واضح ، ثم انعطفت الى المقهى لاجلس مع الحرافيش . احسست بحافز قوي يدفعني الى تحدي حسين في الطاولة . انهمكت معه في معركة حامية دون ان يهتم احد منهم بالاستفسار عن اللقاء الفاشل ، فحمدت لهم هذا السلوك ، واخذت اثرثر حول انتصاراتي في الطاولة وضعة شانهم . كنت اشعر براحة كبرى في هذا . انتهت المباراة بانتصاري عليه ، ورجعت في وقت متأخر من المساء ، وانا اشعر بالاريحية والانبساط .

لم اشأ ان افعل شيئا سوى التفكير في النوم ، وكان هذا التفكير محاولة قاسية .. فقد القيت جسمي على الفراش وحاولت اغلاق عيني دون جدوى فحملقت مشدوها في الظلام ، ثم ما لبثت ان فكرت في اماني ، وفي لقائي الفاشل ، وتساءلت في مرارة : كيف يمكن ان يحدث هذا ؟! .

مضت ايام مضنية عانيت فيها الكثير من الالام . لم أحاول ان ازور احدا ، حتى المقهى الذي نلتقي فيه كل مساء ، انقطعت عنه . ولم أخرج الا للضرورة . جاءني حسين وهو يحسب أن مرضا الم بي . وحسين ودود بطبعه ، وقد حمدت الله ان حسين هو الذي زارني ، فأنا استريح له ، سألني عن سر غيبتي فتعللت ببعض المشاغل التي تحول دون ذلك ، ووعدته بأن التقي بهم عما قريب .

لست ادري سبب اعتكافي بالبيت في أغلب الاوقات . أيمكن ان يحدث هذا ؟! . فتاة كأماني تقلب حياتي رأسا على عقب ! .. وتنغص حياتي : وتقيد انطلاقي ، وتحبس انفاسي المحمومة ، وتردني الى طريق اخر ما كنت افكر فيه قط ! . طريق لا أدري الاسير فيه مرغما أم هوى النفس جرني اليه حبا في التغيير ، ومللا من حياة الاستهتار . لا ادري بالضبط تبريرا معقولا لهذا السلوك، لكن هناك حقيقة ثابتة في ذهني لا تقبل الجدل ، وهي اني أحببت اماني لدرجة لم اكن اتصورها ، واني عانيت الكثير من الالام والتفكير المتضارب الى الحد الذي لا يمكن للحرافيش ان يصدقوه .. فكلمة الالم ترن في مسامعهم رنينا اجوف، فلا يحسون لها معنى ولا يشعرون بها .

استملت سعاد كي تتحدث عنها .

ـ قولي أي شيء عن اماني . اريد ان أعرف عنها كل ما تعرفينه.

ابتسمت سعاد ابتسامة خفيفة وقالت بصوت هامس :

ـ لقد اخلفت لك موعدا .

ـ كيف عرفت ؟! .

ـ أأحببتها حقا ؟ . بيني وبينك هي فتاة نبيلة وتحب الحياة ، لكن الطبيعة جاءت ضد رغبتها في الحياة .. أتدري سر جوربها القاتم ؟ . ألم تلاحظه ؟.

قلت في لهفة :

ـ لاحظته ، ولا ادري .. لا ادري سره .. لا ادري ..

ـ بساقها اليسرى اثار حروق ، وكذا تمتد هذه الاثار الى اجزاء اخرى من جسمها .

نظرت اليها نظرات تائهة ، ولم تستطع مقلتاي ان تستقرا في محجريهما . كنت في حالة قلق ودهشة . واكملت سعاد حديثها لتجيب على نظراتي المضطربة :

ـ هي التي صارحتني بذلك . واخلفت الموعد حتى لا تتطور بالعلاقة الى الحد الذي لا يمكن بعده ان تلتئم الجراح . شعرت بمدى حبك الكبير لها ، لكنها خشيت ان تفجعك بالواقع المرير الذي يعيش في لحمها كشظايا النار .

لذت بغرفتي .. جلست على مقعد واشعلت لفافة ، اخذت انفث دخانها وفي أعماقي صوت يصيح « ما أهون الحياة ! » . احسست بنار تزحف الى اصابعي . حاولت اشعال لفافة اخرى ، لكن ما في العلبة قد نفد ، أطبقت يدي عليها بقوة والقيت بها بعيداً ، والصوت المنبعث من أعماقي يصيح هذه المرة في غلظة : « سحقا لتلك الاقدار العمياء » .

نهضت عن الكرسي .. نظرت الى ساقي ، لشد ما عجبت من امرهما، كيف تبدوان ضعيفتين واهنتين ؟!. الم احرز بهما انتصارات عديدة في

فرحة البعد

الدكتور محمد رجب البيومي

★ ★ ★

أليس عجيبا ان اتوق الى البعد ... وأزعم أني في الهوى صادق العهد
أليس عجيبا بل مريبا تشوقي ... الى بعض اوقات اعيش بها وحدي
لكنت اخال البعد سيفا مجردا ... يسل بلا كف ويفري بلا حد
وازعمه يغري العيون بدمعه ... ويضري باطواء الحشا لافح الوقد
ولكن تأملت النوى فوجدتها ... تلوح بوجه باسم غير مربد

رمتني الليالي ذات عام بعاجل ... من البين وافي كالقضاء بلا وعد
سطا ليله الداجي على فجاءة ... وكنت ألذ العيش في زمن رغد
فولولت كالطفل الغرير حماقة ... وأبديت للاصحاب ما لم أكن ابدي
وجلجل في رأسي الصداع مطارقا ... فاسندت مكروبا الى راحتي خدي
وخلت عذاب الله في الخلد لن يرى ... على هوله اقسى حريقا من البعد
ولما دنا التوديع ولول خافقي ... وأقبلت مصهور الحشا اهل الرشد
وخلت فضاء الكون سجنا بناظري ... اسير به سير المكبل بالقيد

مباريات الكرة !؟ . كيف بالله أحس هذا الاحساس الغريب الذي يكاد يشلهما عن الحركة ؟! .

تمشيت في غرفتي ، ولما ضقت ذرعا بها ، خرجت الى الصالة واخذت اجوبها، واحساس طاغ يعصف بفكري .. احساس يدفعني الى ان افعل شيئا ، اي شيء . وعجبت لادعاء الحرافيش بأن حبي هذا ادعاء زائف ، ولا يعدو ان يكون نوعا من النزهة العاطفية التي تنتهي من حيث تبدأ نزهة جديدة .

تشبثت اكثر بها . لا يهمني جسمها المشوه . انا أبحث عن الاعماق ، عن الروح ، عن شيء لم أنله من قبل . اكتشفت في أماني الاغوار السحيقة المليئة بالنبضات الحية التي تشيع في النفس لذة ناعمة لا يقدر انسان على وصفها ، لانها تبعد عن الحس المادي بعدا شاسعا . شيء اخر كان ينقصني ، ووجدته في أماني . وكأن الله أنبتها في حقل عمري ، وجعلها صورة شائهة حتى يحرمني مما تلذذت به كثيرا . ليكن هذا قدري ، فأنا راض به ويلقى نداء صاخبا في أعماقي من الصعب علي حبسه . جسدها لا يهمني في شيء ، وانما الاصالة الانسانية التي تفيض في اخلاص الى مدى بعيد يصل الى حد العطاء السخي .

حتى غلالة الحزن التي تطوف كالغيم على ملامحها ، حتى هذه الغلالة جعلت منها شيئا من الصعب علي الانفصال عنه .

ولكن اين هي اماني ؟ . حاولت ان التقي بها فلم اوفق ، ولم تعد تزور اختي . علمت انها رحلت ، وتركت رسالة مع أختي تقول فيها :

« لقد صممت على الرحيل . بذلت جهودا مضنية مع أسرتي حتى توافق ، لعلك في الفراق تنسى ما كان . اما انا فيعلم الله كم انا احبك ، وحبي لك هو الذي أملى علي هذا التصرف . وكيف لا احبك وانت حلمي اليتيم الذي داعب سمائي الحالكة السواد !؟ » .

طويت الرسالة في ألم ممض يوشك ان يستدر الدموع من المآقي . وجلست اكتب – لاول مرة – قصة حبي التي ماتت وهي جنين . ومن يومها الوذ بالزهد عن صخب الاباطيل ، فأشاع الحرافيش ان الجنون اصابني !! .

القاهرة — **حسني سيد لبيب**

ولكن وضعا لم يكن في تصوري   تولى باحساسي من الضد للضد
رأيت فتاتي ـ يا لها من نبيلة ـ   تكاتم في اعماقها زفـرة الوجـد
بدا الجزع الطاغي على قسماتهـا   وتبذل في اخفائه غـاية الجهـد
وترمقنـي حبـا كأن لحاظهـــا   تناشـدني ألا أحـول عن العهـد
وفي صمتها معنى اكتئاب رأيتـه   يجيب بما لا يملك القول مـن رد
تجلـى اسـاها ناطقـا بوفائهـا   فبدد وهمـا اسلم العين للسهد
اجل كنت شكاكا اظـن ودادهـا   ملاهي خود تقتل الوقت عن عمد
فان نطقت أولت ما نطقـت بـه   وان صمتت، فالصمت فاتحة الصد
واني على ما كان من فرط حيرتي   أقدم في استرضائها الروح لو تجدي
على طول شكى استلذ جوارهـــا   واعتده اشهى مذاقـا من المجـد
أحـب بقائـي في الحياة لاجلهـا   وأنشق منها مثل رائحـة الخلـد
أسر بمرآهـا وأهـوى حديثهـا   ولا كهيام الحائمات على الـورد
تلـوح بعينيهـا مسـارح فتنـة   تؤجج نار الشوق في الحجر الصلد
تعظم معنى العيش لي فكأنمـــا   غدوت مليكـا نافذ الحل والعقـد
فلما جـلا التوديع كامن حبهـا   تيقنت ان الكون اصبح لي وحدي

وعربدت الاشواق بين جوانحـي   ولست تجاه الشوق بالرجل الجلد
فطـيرت مزهـوا اليهـا رسـالة   تترجم احساسي فتفصح عن ودي
وجاشت معاني الحب تزحم خاطري   ولم تك لي في القول سابقة العهد
ولكــن الهامـا تدفـق وحيـه   فنضر وجه الصخر بالاغصن الملد
رأيت احاسيسي تصير روائعـا   من الادب العالـي منمقـة السرد
كأن بلاغـات العصـور تدفقـت   على قلـم يختـال بالكاتب الفرد
وأكبر ما روى المشـاعر ردهـا   فقد بل حر الشوق بالسلسل البرد
تألـق وردي الصحيفـة باهـرا   فضم للون الـورد رائحة الـورد
وابدى من الشوق اللهيف مواجدا   سررت وقد شاهدت أشباهها عندي
كأني حبيت الخلد صيتا وشـهرة   والا، فما للتيه جـاوز بي حـدي
تهادى بريدي مسعدا بخطابهـــا   فأسدى الى المشتاق أنفس ما يسدى
وحـدد لـي يـوم اللقـاء مبشرا   فبت لهيف النفس احلم بالعـود
أنمـق معسول الحديث مهيئـا   ضروب فكاهـات تجل عن العـد
وهاجت احاسيس بصدري عنيفة   ولا كهياج المـوج بالجزر والمـد
اريد ثباتـا غـير ان عواطفـي   تنهنه من عزمي فاتكل عن قصدي
وسارعت لاستقبالها حين اشرقت   وفي مقلتي جوع يضاعف من وجدي
بدت فبدا الوجـه الجميل يظلـه   ويرعاه في تسياره طائـر السعد
وصافحتها كي تخبر الكف أختها   بمشبوب وجد، لا يني لافح الصهد
فأبدت بعينيهـا حديثـا فهمتـه   ولا كحديث العين للعين اذ تبدى
ولم تبتسم مثل الصغيرات بل بدا   لعقلي ابتسام القول في الاخذ والرد
لقد ابـرز اسـتقبالها كوداعهـا   هواها، فدعني اذكر البعد بالحمد

اذا أسلف الوصل القريب لنا يدا   فان يدا للبعد جلت عن الايـدي

الفيوم ـ ج٠ع٠م٠

محمد رجب البيومي



محمد سليم رشدان

في مسالك الدروب

بقلم محمد سليم رشدان
المحاضر في كلية الاداب بالجامعة الاردنية
ورئيس تحرير مجلة « رسالة العلم »

* * *

العزيز الغالي

قال لي بعد ان استقر به المجلس .

كنت في الامس ادير مفتاح المذياع في المنزل ، فاذا بي أدخل على محاضر يسترسل في حديثه عن الحنين الى الوطن واهله ، وكان فيما اورده من شعر الشعراء شاهدا على ذلك بيتين من شعر شوقي يقول فيهما :

وطني .. لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي
أحرام على بلابله الدوح .. حلال للطير من كل جنس ؟!

وكنت احفظهما من قبل ، ولكنني مع ذلك فوجئت بهما كما لو كنت اسمعهما لاول مرة ورايتني حيالهما استعيد سلسلة من الماضي ، توغل كثيرا خلف طوايا الذكريات .

قلت : وان من حقك ان تفعل هذا ، فطالما تأثرت بهذين البيتين بالغ التأثر ، كلما وقعت عليهما عيني في كتاب ، او سمعتهما يترددان على لسان منشد ، وانهما لمن جيد ما قاله امير الشعراء احمد شوقي في قصيدته السينية الطويلة ، معارضا بها سينية البحتري التي مطلعها :

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس

وقد نظمها في الاندلس عندما كان مبعدا عن وطنه مصر الى هناك . وان هذين البيتين في تلك القصيدة لمن اجود ما قاله الشعراء في الحنين الى الوطن . ولقد كان شوقي ينشدهما في الاندلس فتدمع عينه حنينا الى وطنه ، كما كان يستمع اليهما بعد ذلك الكثيرون ممن أبعدوا عن أوطانهم فتفيض منهم العبرات حنينا اليها .

فقال صاحبي : وان هذين البيتين قد أثارا في نفسي من لواعج الشوق والحنين ما افاض دمعي وهز وجداني ، حتى الفيتني أردد مع شوقي :

أحرام على بلابله الدوح .. حلال للطير من كل جنس ؟

وكنت اقول ذلك وخيالي يحلق الى بيتنا وبيارتنا عند مداخل مدينة يافا الجميلة ، فأذكر كيف يتمتع بهما الغاصبون هناك ويحرم علينا – نحن المالكين لهما شرعا – ان تطأهما اقدامنا . ذلك ما ذكرني به شعر شوقي امير الشعراء ، فذكرت معه ما يشجي الفؤاد ، ويثير فيه جراحات الاحزان .

قلت : وإنه ذكرك بعزيز غال ، ردك الله يا اخي الى بيتك وبيارتك ، وبذلك يكون قد ردنا جميعا الى فلسطين الحبيبة ، فردوسنا المسلوب من وطن العرب ، وذلك بعد لواء الاسكندرونة قرب مدينة حلب في سوريا .

وعند ذلك ابتسم صاحبي بعد الذي غام على وجهه من الاسى ، وقال مداعبا : وجعلت بيتنا وبيارتنا في يافا مفتاح ذلك كله – ؟!

فقلت وانا ارد له دعابته : معاذ الله يا اخي ، بل سوف يكون ذلك كله – ان شاء الله – مفتاحا لبيتكم الجميل وبيارتكم الغالية .. ثم لا عليك .. أليست النتيجة واحدة ؟! .

مفاجأة .. ننتظرها

ان الذكريات صدى السنين .. ولقد رايتني استعرض هذه الذكريات ، ويتجاوب في مسمعي منها صدى السنين ونحن ما نزال في اخريات أيام العيد .

ورأيتني أسمع من هذا الصدى تكبيرات العيد ، تتردد على افواه الوف والوف من المسلمين في مختلف اقطارهم ، في اعقاب الانتصارات المدوية في ايامهم الغر المحجلة ..

في اليرموك ، وفي القادسية ، وفي مصر ، وشمال افريقيا ، والاندلس ، وفي الهند والسند ، وفي مختلف افاق المشرق الاقصى ، حيث شارفت جنود المسلمين حدود الصين .

ثم رايتني أسمع من هذا الصدى تكبيرات العيد خلال ذلك العام ، الذي سجل فيه المسلمون انتصارهم العظيم على اعدائهم الروم في عمورية ، ذلك الانتصار الذي ثأروا فيه للكثيرين من شهدائهم ، بعد ان تناهت الى اسماع المعتصم – قائد تلك الحملة – استغاثة المرأة العربية المسلمة من (زبطرة) التي هتفت بها ، وهي في قيود الاسر مرددة : (وامعتصماه ..) !!

ثم رايتني – اخيرا – اسمع من هذا الصدى تكبيرات العيد ، في جوانب الحرم القدسي ، بعد ان طهره صلاح الدين الايوبي من تحكم الصليبيين ، وبعد ان أعاده الى حوزة العرب والمسلمين ، وطرد منه الغزاة الطامعين ، الذين جاءوا ليستعمروا بلادنا باسم الدين ، والدين بريء مما اقترفوه من مجازر .

لقد رايتني اسمع من هذا الصدى ذلك كله .. اسمع تلك التكبيرات تمتليء بها افواه اولئك الاحرار المجاهدين من اسلافنا ، وقد امتلأت ايديهم بالنصر ، وتوجت هاماتهم بعزة الاقوياء ، وكرامة الغر الميامين ، فاذا بالصدى يتردد هادرا مدويا عنيفا ، توشك ان ترتج منه الجبال الراسيات .

والى جانب ذلك .. رايتني اسمع صدى كان **ما يزال قريب العهد ، لم تبتعد به الذكريات خلف السنين، وتلك كانت تكبيرات العيد ، تتردد هزيلة ضئيلة متخاذلة، على افواه العرب والمسلمين ، في مختلف انحاء الارض ، وعدوهم يحتل ارض الاسراء والمعراج ، ويضم أليه مدينة القدس ، بكل ما فيها من مقدسات وامجاد ، وحسبك من ذلك المسجد الاقصى ، قبلة المسلمين الاولى ومهوى افئدتهم ، حين يتطلعون الى صخرة المعراج ، سبيل نبيهم الكريم الى الملأ الاعلى .**

اجل ... كانت تكبيرات العيد تتردد هزيلة ضئيلة متخاذلة ، على افواه اولئك المصلين ، وقنابل عدوهم **تنهال على الامنين في اربد وما حولها من قرى ، وعلى مشارف دمشق وارباضها ، وعلى قناة السويس والجزيرة الخضراء .. ثم على جنوبي لبنان ..**

كان الذين يكبرون لا تمتليء أيديهم بغنائم الانتصارات المدوية ، التي امتلأت بها ايدي اسلافهم من قبل ، حين توجت هاماتهم عزة الاقوياء وكرامة الغر الميامين .

ليت شعري الى متى .. ؟ وهل سيظل عدونا يتعرم علينا بأسه وجبروته ، ونحن نقابله بهذه الفرقة والشتات ، صفوفا ممزقة متخاذلة ، وكل واحد منها لا تربطه بسواه رابطة .. ؟

هل سيظل عدونا يضربنا احادا ، والاخرون يشهدون ولا يحركون ساكنا ، حتى اذ ما جاء دور الواحد منهم ، لم يجد من يلتفت اليه في مصيره المحتوم ؟

ترى .. هل سيظل هذا دابنا ، أم انها ستكون هناك المفاجأة التي ينتظرها كل واحد منا ، مفاجأة وحدة الصف واجتماع الكلمة ، والسير تحت راية تخفق في ظلها عزة الاقوياء ؟ ! .

اننا لننتظر ، وينتظر معنا الاحرار .. وليته لا يطول هذا الانتظار .

انها الحيلة

هناك قصة رمزية .. وهذه القصة الرمزية ذات مدلول بالغ الأثر ، وهي مما تناهى الينا من آثار السلف الصالح، ونحن لا نزال نتناقلها حاضرا عن غابر ، ويعرفها الصغير منا والكبير ، وهي تتحدث عن صياد كان قد نصب شباكه في يوم عاصف بارد ، فوقع فيها **عدد غير قليل من العصافير ، فجاءها وجعل يتناول العصافير واحدا بعد واحد فيذبحها ، ودموعه تتساقط من شدة البرد والريح العاصف ، على خديه ، فنظر اليه عصفور لم يجيء دوره بعد ، وقال لجاره في الشبكة : « لا ترى الى هذا الصياد ما ارق عاطفته ؟ . انه يبكي لشدة أشفاقه علينا !! » .**

فقال له جاره وهو يعجب لفرط غبائه : « ويحك .. انك لو نظرت الى ما تصنعه يداه ، لرجعت عن حكمك عليه .. » .

تلك هي القصة الرمزية .. وهي لا تعدو كونها اسطورة ، ونحن اليوم نعيش في حال مثلها ، ويكاد يجري بيننا فيما نحاور به بعضنا بعضا ، شبيه ذاك الذي يجري بين العصفورين في الشبكة حيال الصياد ...

ان هذا الخلاف المصطنع – الذي تتحدث عنه الصحف والاذاعات عندنا – بين عدونا الذي أغتصب وطننا في فلسطين ، وبين الدولة الظالمة التي زودته عن **عمد واصرار وتخطيط مدروس ، بطائرات الفانتوم ، وقنابل النابالم ، والطيارين المأجورين بسخاء من رعاياها ، والدعم الصفيق المفضوح في المحافل الدولية ، وتحدي** مشيئة الملايين المئة من **العرب ، حين تضع تحت تصرف عدونا كافة المرافق العسكرية التي سيطرت عليها في** وطننا الكبير باتفاقات صورية ، ومعاهدات يكشف زيفها الاحرار يوما بعد يوم ..

اجل .. ان هذا الخلاف المصطنع بين عدونا وبين تلك الدولة الظالمة ، التي تتحدث عنها أذاعاتنا بما يشبه الارتياح والرضى ، وتبرزه صحفنا ومجلاتنا بالعناوين الكبيرة ، **قد أوجد بين بعض فئات الشعب عندنا مجالا يتحاورون فيه ، وهم يتهمون اعداءنا بالجحود ، لانهم تنكروا لمن احسن اليهم ، حتى صدق فيهم قول الشاعر :**

اعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

وتنطلي عليهم الحيلة ، وتخدعهم البيانات التي قصد من اعدادها خديعتهم ، ويتوهمون ان هذا الخلاف سببه العطف علينا ، والتحول الى جانبنا ..

ليت شعري .. كيف غاب عنهم : **ان المرء لا يمكن ان يخاصم يده التي بها يأكل ، وعليها يعتمد ، وبفعلها يكون بطشه حين يصول ويجول ؟ ..**

كيف غاب عنهم : ان الشجرة الناضرة في الحقل ، لا يمكن ان تتنكر للساقية ، التي توصل اليها الماء ، فيمدها بالغذاء والنماء ؟ ..

بل .. ما لهم ، وهم يرون ما ينزله عدونا بالامنين العزل من مواطنينا ، بسلاح تلك الدولة الظالمة ، وقنابلها ، وطائراتها وطياريها ..

ما لهم لا يذكرون – حيال ذلك كله – تلك القصة الرمزية .. قصة الصياد والعصافير ؟!

عمان – الاردن **محمد سليم رشدان**

كلمات حزينة

مهداة الى الدكتور عدلي ناعوم

اصيب ولدي محمد بمرض نفسي شديد الاثروتولى الدكتور عدلي ناعوم علاجه بقدر ما يتيحه الطب من علاج غير ان خلقه الكريم وتقديره للواقع كان فوق مجال الحديث ، ومن ثم كتبت هذه الابيات ...

●

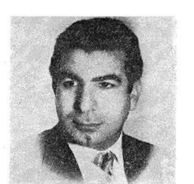
يا عميق الاحساس بالناس لولا ... ذلك العمق : ما شكرتك : لولا
عشت ماضي كله أتلقى ... كل خطب ، بربما ولعلا
لا يرى الناس من حياتي الا ... جانبا مشرق الملامح سهلا
غير ان الذي اصاب فؤادي ... طارق دونه الاماني قتلى
لا ترى العين سهمه وهو أفرى ... من شفار المدى وارهف نصلا
مس مني بني وهو شباب ... من ربيع الربيع اندى واحلى
تتبع العين خطوه وهو يمشي ... وترى فيه : طرح عمر تولى
فاذاه ما بين ليل وصبح ... أمل طاش خلسة واضمحلا
في وجود تحير العقل فيه ... بين وهم مضى ، ووهم أطلا
باكيا تارة واخرى ضحوكا ... وهو في الحالتين يقتل قتلا
فلو اني خيرت في الامر ، كانت ... رقدة للمنون اهون ثكلا
واذا كانت الحياة عذابا ... كان وأد الحياة بالموت حلا

يا رجاء الرجاء عفوا اذا ما ... شط مني الحديث قطعا ووصلا
فانا المرء لست احسن زيفا ... في كلامي ولا أزخرف قولا
واذا كنت قد شكرتك لما ... طوقتني يداك برا وفضلا
فلأني أحسست طاقة عطف ... ادركتني ، والقلب ينزف هولا
لم أقل جفت الجراح والقت ... لفتة منك عن كياني حملا
أنت من يدرك الحقيقة مهما ... خفيت ، والرياء مهما تحلى
انما هزني وقوفك مني ... موقفا لم أجده في الناس قبلا
موقفا ردني الى الصبر حينا ... بعدما كدت من همومي أبلى

يا كريم الفؤاد والنفس حسبي ... انني لم أجد لعطفك مثلا
ليس من يدعي المروءة قولا ... مثل من يدعي المروءة فعلا

الاسكندرية

عبد العليم القباني



وحيد الدين بهاء الدين

الرصافي في شعره الحربي

بقلم وحيد الدين بهاء الدين

* * *

يبدو لنا الرصافي ، من خلال دراسة شعر الحرب الوصفي عنده ، أنه ميال الى العثمانيين .. متاثر بهم .. محب لهم .. مدافع عنهم ...

لعل التفسير الواقعي المعقول لهذا كله ، هو كون الدولة العثمانية مسلمة تمثل القيم المقدسة ، والمعاني الروحية ، التي جاء بها الدين ، وتجسد الوجود الاسلامي في الشرق كله . ثم انها حامية الديار والذمار ، والحريصة على مصالح المواطنين في جميع الاقطار والامصار ، تلك التي كانت واقعة تحت سلطانها ، وفي مناطق نفوذها ..

اذن ان العامل الديني الذي تجاوب معه الرصافي بعواطفه وافكاره ، هو الذي جعله يشعر بهذا الشعور العميق ، ويدعو الى الذياد عن كيان الدولة العثمانية ، ومناصرتها ، والالتفاف حولها ، في كل ألحروب التي خاضتها مع اعدائها في الدين والدنيا .. وانما هي حروب الاستعمار الغربي الذي يريد ان يسيطر على الشرق لكي يستغله ، ويعبث بمقدراته ...

وحري بالذكر ان الرصافي لم يكن وحده الذي استجاب لهذا العامل الديني ، ووقف بشدة الى جانب دولة الخلافة ، وانما كان هناك ألكثيرون من شعراء العراق والبلاد العربية ، من امثال الكاظمي والزهاوي واليعقوبي والباجه جي وابي المحاسن ، وشوقي وحافظ وصبري والرافعي ، اضافة الى بعض المفكرين الاجتماعيين والسياسيين كجمال الدين الافغاني ومصطفى كامل ومحمد رشيد رضا ، ومن اليهم .

مرد هذا التعاطف مع السلطنة العثمانية ، على الرغم من سياستها المتبعة ، وواقعها المعاش ، الى اعتقاد هؤلاء وغيرهم ، بأن الخطر الحقيقي يكمن في الغزو الاستعماري الزاحف من الغرب ، ويتمثل في وجوده .. ومما يقوله مصطفى كامل : « ان سياسة التقرب من الدولة العلية هي احكم السياسات وارشدها ، فالعدو الاكبر هو الاحتلال الاجنبي .. » .

غير ان باحثين اخرين يضيفون الى العامل الديني ـ وهو من حيث طبيعته عامل داخلي محض ـ عاملا اخر خارجيا ، وهو « الرغبة في المنفعة الذاتية » .

المراجع التي بين ايدينا ، تشير الى ان الرصافي لم يشهد حربا من هاتيك الحروب ، التي قال فيها شعرا ، لانه لم يكن عسكريا .. ولكنه لاحساسه بمسئوليته تجاه الاحداث والارتفاع الى مستواها ، وتمتعه بروح وطنية ونخوة دينية عالية من جهة ، ونفاذ بصيرته ، وقوة بيانه ، واصالة ملكة التصوير عنده من جهة اخرى ، تمكن من ان يعيش هذه الحروب الطاحنة ، ويواكب بعقله وقلبه ، مآسيها ومفارقاتها ، واصفا اياها ، وما يمور في اعماقه ، وصفا حيا اقرب الى التجسيد الفني المميز ..

لا بدع في ذلك ، فان هنالك شعراء كثيرين في الادب العربي القديم ، والحديث ، كذلك في الاداب العالمية ، وصفوا الحروب : مشاهدها ومظاهرها .. اثارها واصداءها ، وما اكتنفها من تيارات وغرائب ، وما استعمل بها من آلات وادوات ، دون ان يشاركوا فيها ، بل تمثلوها تمثلا فيه صدق التجربة وعمق المعاناة وواقعية المجابهة .

للرصافي قصيدة عنوانها « الحرب في البحر » يتناول فيها قصة الحرب الروسية اليابانية الناشبة سنة ١٩١١ ، بسبب من محاولة روسيا للاستيلاء على احد موانيء اليابان ، تمشية لمصالحها التجارية، وتسهيلا لمشكلاتها الحربية في المستقبل بعد يأسها من محاولاتها الاخرى في السيطرة على بعض الموانيء والمضايق المرتبطة بمياهها الاقليمية . ومن هنا بدأت بالعدوان .. الا ان عدوانها باء بالخسران ، كان له اثره في التاريخ الحديث على الصعيدين السياسي والاقتصادي ..

والرصافي المعروف بعدائه التقليدي لروسيا ، تلبسته حال من العطف الانساني على اليابان ، وما عرضت لعدوان مبيت ، تدفعه الى ذلك كله روح اسلامية ، حيث نظم قصيدته واصفا بها الحرب ، وكيفية تصادم الاسطولين : الياباني والروسي ، وصفا واقعيا ناطقا :

سعروها في البحر حربا ضروسا   تاكل المال نارها والنفوسا
قرب «جوشيم» قد تصادم اسطو   لان اردى اليابان فيه الروسا
يوم «طوغو» دها باسطوله الرو   س قتالا وكان يوما عبوسا
فحداها بوارجا تملأ البحر   وقارا طورا وطورا بوسا
كل مخارة اذا حركت دفاعها   خضخضت به القاموسا

ثم يقول :

جهزوها مدافعا فغرت أفواه نار   قد التقمن الشوسا
دلعت ألسنا من النار حمرا   ويل من قد غدا بها ملموسا
ترسل الموت في قنابل كالشهب   ذريعا مستأصلا عتريسا
طالما بانفجارها انفلق البحر   انفلاقا مذكرا عهد موسى

انما الرصافي في وصفه متحمس .. مقدر لما امتاز به اليابانيون من روح معنوية حركتهم للانتقام والاستعداد لحرب قادها قائدهم «طوغو» حتى ان تفانيهم في سبيل النصر ، جعل البحر يعلوه «غمام من دخان» وجعل « الحيتان تخشى من اللهيب » ، وجعل طرادهم يثور بجيش .. ولكأن الجبال ترى فيها البراكين تقذف الموت :

بث اسطوله فلبسه « طو   غو » باسطول خصمه تلبيسا
حيث قد اجفلت من اللجج الحيتان   تخشى من اللهيب مسيسا
وعلا البحر مكفهر غمام   من دخان همى ولكن بوسى
ثار طرادهم بجيش بنسا   فات سفن لهم سحرن الوطيسا
كجبال ترى البراكين فيها   تقذف الموت جارفا والنحوسا
فأباحوهم هنالك قتلا   واغتناما نفوسهم والنفيسا
فسل اليم كم تضمن منهم   مفرقا في عبابه مغموسا
هاجموهم وللهياج سعير   ملات واسع الخضم حسيسا

هكذا انتصر اليابان بعد سحقه روسيا ، والباسها ثوب الهوان ، حتى صار يوم انتصاره ذكرى فخار ومجد عبر التاريخ :

فكسوهم من الهوان لبوسا   وسقوهم من المنون كؤوسا
صرعت في الوغى ليوث من اليا   بان اسطول خصمها مفروسا

فانتضوهـا عزائمـا ماضيـات   طاطأ الروس دونهـن الرؤوسـا
وجئوها في الـروع بيض فعـال   اقرأتهم كتب الفخار دروسـا
ان يومـا لهـم تقضـى بجو شيما   ليـوم بالذكـر زان الطروسـا

اما حرب الطليان بطرابلس الغرب ، فمن الحروب التي ما تفتأ اصداؤها تتردد في رحاب التاريخ الحديث ، لما امتازت به من اهوال ومجازر .. فقد كانت الامبراطورية العثمانية في اواخر اعوامها تشكو الضعف والانحلال .. بدأ كيانها يتمزق ، ومجدها يتلاشى ، وظلهـا ينحسر .. لذا قام الطليان باستغلال هذا الضعف استغلالا اغراهـم بالهجوم سنة ١٩٠٤ على طرابلس الغرب بعد تواطؤهـم مع الـدول الاستعمارية الكبرى في اوربا ، بقصد الاستحواذ عليه والانتفاع بموارده الطبيعية واستثمارها لمنافعهم الذاتية ..

ولا بد ان نجد الرصافي يصف لنا هذه الحرب في ثلاث قصائد ، هي من اروع ما نظمه في هذا الغرض ، واعظمها ثراء ، واعمقها اثرا ، لان تجربته الشعرية تتسم بالعنف والصخب ، وتعابيره تنساب انسيابا حماسيا ، تناظرت فيه الالفاظ والمعاني على حد سواء ..

يقول الرصافي في قصيدته الاولى : « الى الحرب » :

الا انهض وشمر ايها الشرق للحرب   وقبل غرار السيف واسل هوى الكتب

واحسب الرصافي في بيته هذا متأثرا بقول ابي تمام :

السيف اصدق انباء من الكتـب   في حده الحد بين الجـد واللعب

ويواصل قـائـلا :

ولا تفترر ان قيـل عصـر تمـدن   فان الذي قالوه من اكذب الكذب

يعزز الرصافي هذا ، ما عمله الطليان « بين مصر وتونس » مـن استباحة الحمى واستحلال الحرام :

ألست تراهـم بـين مصر وتونس   اباحوا حمى الاسلام بالقتل والنهب

ثم يرى الرصافي ، ان الطليان ينبغي ان لا يؤخـذوا بالجـرم وحدهم ، ما داموا قد تحالفوا مع الحلفاء ضد الدولة العثمانية ، التي انضمت الى المانيا .. وبتعبير ادق : ما داموا قد تقاسموا مسبقا مـا يمكن من يحتل من الممالك والاراضي :

وما يؤخذ الطليان بالذنب وحدهم   ولكن جميع الغرب يؤخـذ بالذنب
فاني ارى الطليان منهم بمنـــزل   يعد « وهم يغرونه » منزل الكلب
فلولاهم لـم ينقض العهد نـاقض   ولا ضـاع حق في طرابلس الغرب
بلاد غـدت في الحرب تندب اهلها   فتبكي وتستبكي بين الترك والعرب
قد اغتالها الطليان وهي بمضجـع   من الامن لم يقضض برعب على الجنب

ثم يشرع الرصافي بتصوير هذه الحرب ، وما كان لها من اصداء فتقت الاذهان وهزت الاعماق ، ويصب نار النقمة على الاستعمار الـذي يحاول الزحف الى الشرق لمسخ حضارتـه ومعتقداتـه ، والاستئثـار بخيراته وموارده ، والاستهانة باماني شعوبه ، كذلك يشرع بوصـف المدافع وهي تقذف النيران « كالوابل السكب » ، وسحب الدخـان يتعالى في الفضاء اللامحدود حتى لم يبق ثمة زرع ولا ضرع .. اخضر ولا يابس ..

ولكن هؤلاء القوم الذين لا يترددون في الدفاع عن وطنهم المفدى ، ولا يتخاذلون عن نصرته والاستماتة في سبيله ، هبت عليهم ريح نكباء دمرتهم ، وكانت من اسباب الجدب والمحل :

فما انتبهت الا لصرخـة مدفـع   وما نهضت الا الى موقف صعب
فأمست وافواه المدافـع دونهـا   تمج عليها النار كالوابل السكب
صواعق من سحب الدخان تدكهـا   وتنسفها نسف الزلازل للهضـب
غدت ترتمي فيها عشـيا وبكـرة   فلا يابسا ابقت ولم تبق من رطب
وما ان شكا من عضة الحرب اهلها   ولكنهم شاكون من عضة الجـدب
فما خفقت عند الهياج قلوبهـم   ولا اخذت اعصابهم رجفـة الرعب
ولكن جرت نكب الريـاح بارضهم   فجرت عليها كلكل الحجج الشهب

ويشيد الرصافي بشجاعة الليبيين ، حاثا اهل بنغازي على نصرة طرابلس وانتشالها ، في الوقت الذي يحمل فيه حملة شعواء علـى الاستعمار الذي اجاد لغة الخديعة والمكر ..

على ان القصيدة الثانية ، لا تتعدى الوصف لمشـاعر الرصافـي بسبب ما حل بطرابلس من محنة وغدر من جراء هذه الحرب القـذرة التي اودت باناس اتصفوا بالتضحية والبسالة ، غير انه يعود متفائـلا بان قومه سيثأرون بأنفسهم ، وينتقمون من اعدائهـم هؤلاء الذيـن ساموهم الخسف والذل :

فانـا لقـوم ان نهضنـا لحـادث   من الدهر افزعنا بنهضتنا الدهرا
ندك هضاب الارض حتى نثيرهـا   غبارا على اعدائنا يكشح الذعـرا
ونأكل مـن المـوت حتى كأننـا   نلوك بـه ما بـين اضراسنا تمـرا
فسل جيش «كانيفا» بنا كيف قومت   شفار مواضينـا خدودهم الصعرا
وكيف هزمناهـم فولـوا كأننـا   واياهم اسد الشرى تطرد الحمرا
وكم قد نثرنـا بالسيوف جماجما   نظمنا بها فوق الثرى للمدى شعرا

الى ان يبلغ الذروة ، وهو يصف بالم قريح ما صنعه الطليـان بقتلى المسلمين الابرياء بطرابلس ، وكيف اوردوهم موارد الهـلاك ، حتى لاقوا ما لاقوا صابرين مصابرين .. ثم كيف اقدموا علـى قتـل النساء .. وهل ينطوي قتلهن على شيء من الشجاعة ومعنى الشرف ؟ :

لك الله يا قتلـى طرابلس التـى   بها حكم الطليـان اسيافهم غـدرا
اداموا بها قتـــل النفوس نكايـة   الى ان صاروا كل بيت بها قـبرا
ولمـا احاط المسـلمون بجيشـهم   فعاد الفضاء الرحب في عينه شبرا
تقهقر يبغي في الديـار تحصنـا   ففربها من خشية الموت واستذرى
واصبح ينكى اهلهـا من تغيـظ   فيقتلهـم جـرا ويرهقهـم عسرا
فأوسعهم بالسيف ضربـا رقابهـم   وآنافهم جدعـا واجوافهـم بقـرا
وما ضر «كانيفا» اللعين لو انـه   ايحجـم عنـا هاربـا بعلوجـه
تقحم في الهيجـاء عسكرنـا المجرا   ويبغي بقتل الابريـاء لـه فخـرا
وهل حسبوا قتل النساء شجاعة   وقد تركوا عند الرجال لهم ثأرا

ويرتقي الرصافي الى مستوى الحدث الرهيب الاليـم باصالـة وثورة ، وقد غمس يراعه في قلب ينزف دما ..

يعز على اسيافنا اليـوم انهـا   تقـارع قوما قرعهم بالعصا أحرى

يعني انهم عبيد وليسوا باحرار ..

وحين نصل الى القصيدة الثالثة « رؤياي الصادقة » ، يطالعنا الرصافي بوصف حلم رآه ليلا ، تطغي عليه كثافة الظلال دون الانوار .. وما الحلم الا تعبير صريح عن هواجسه وخواطره التي تراوده ولا تزايله .. وآلامه التي تضيق عليه بالخناق .. والحلم بعد هذا تشوبه ملامح رمزية ذات دلالات لما حدث ..

وفي نهاية القصيدة يهجو الرصافي بقذاعة وضغينة شيخ روما ، قـائـلا :

فعشتم فـي الـورى سواسـيـة   لا حسـب عندكـم ولا ادب
ما اوقـد الدهـر نـار مخزيـة   الا وانتـم لنـارهـا حطـب
اغسـل شـعري اذا هجوتكـم   لانـه مـن هجائكـم جنـب

معلوم من الوجهة التاريخية ان بلغاريا تحالفت مع الصرب ضـد الامبراطورية العثمانية ، وطالبتها بالانفصال والاستقلال ، بعد تحسسها نعمة الحرية والسيادة .. ولما كان هذا الامر في حكم الاستحالة وغايـة الخطورة بالنسبة الى السلطنة العثمانية ، لانطوائه على اقتطاع جـزء مهم من اراضيها ، فقد عز عليها ذلك .. وابت ان تستجيب لهـذه المطالبة مصرة على موقفها الحازم ، ومن هنا اشتعلت نـيران الحـرب بينهما سنة ١٩١٢ .. والتحم الطرفان لمجابهة النتيجة الحاسمة .

والرصافي يقف ازاء هذه القضية الحساسة ، وقد اقضـت مضجعه ، وايقظت رواقده ، معبرا اصدق تعبير في قصيدته « انشودة الحرب » عن خلجاته النفسية الحادة ، وراسما ما تحتمه الحال الراهنة بالوان متراكبـة ..

نحـن لا نفخـر الا بلسـان مـن سـنان
شـيم ينظـر من تحـت اليهـا الفرقـدان

وبها قد شهد النجم لنا والقمران
سل بنا كل زمان سل بنا كل مكان
هل بلينا المجد الا بالحسام الهندواني
كم جلونا عتمة الهيجاء ذات المعمعان
بسيوف اضحكت في الروع وجه الحدثان

ولا يكتفي الرصافي بذلك كله ، بل يتطاول على « البلغار » متوعدا اياها بالويل والثبور وسحقها تحت اقدام الجيش العثماني المجبول على الاقتحام والجرأة :

يا علوج الصرب والبلغار اولاد ....
لم يكن ايعادكم بالحرب غير الهذيان
انما الحرب لدينا من تمام الحيوان
فاتركوا الايعاد يا ابناء حمراء العجان
ودعوا الحرب فليس الحرب من شأن الجبان

ولكن ماذا كانت نتيجة هذه الحرب البلقانية .. العثمانية ؟ !

كانت النتيجة المؤلمة سقوط « ادرنة » على ايدي البلغار ، وزحفهم نحو الامام .. نحو الاستانة ، على ما تذكر المصادر .. بعد هزيمة الجيش العثماني ..

ومرة اخرى ينبري الرصافي في قصيدة له موسومة ب « ادرنة » كاشفا فيها همومه التي تالبت عليه ، واحزانه على ما حل بالمسلمين وديارهم من ماساة لا سبيل الى نسيانها ..

أدرنة مهلا فان الظبى   سترعى لك العهد والموثقا
وداعا لمغناك زاهي الربا   وداعا ولكن الى الملتقى

عزاء لمسجدك الجامع   افارق محرابه المنبرا
وهل في مصلاه من راكع   يجيب المؤذن ان كبرا
فيا لسقوطك من فاجع   به فجع الدهر ام القرى

وبالرغم من هذا كله فان الرصافي يحاول ان يبعث السلوى والرجاء في النفوس .. ولكن هيهات ! .

رويدا ادرنة لا تجزعي   وان قد امضك هذا الاذى
اذا انت بالسيف لم ترجعي   فلا حبذا العيش لا حبذا
الا انت « الزاسنا » فاسمعي   ونحن الفرنسيس من بعد ذا

ولعل اشهر معركة دارت رحاها في الحرب البلقانية العثمانية ، كانت معركة « لولا بوغاز » التي هزم فيها الجيش العثماني وتحطمت شوكته ، وقال فيها الرصافي بدافع حزبي شعرا يطفح بالاسى ، وينطق بالسخط على قائد المعركة « ناظم باشا » الذي يقال : انه سبب انكسار الجيش العثماني لخيانته وعبثه ، وافتقاره الى الشعور بالمسئولية الحربية والتاريخية .. والذي لقي مصرعه على ايدي الاتحاديين في الاستانة ، وهم كانوا يعارضون ويخاصمون الائتلافيين الذين كان ناظم باشا منتميا الى حزبهم ..

وفي هذه القصيدة وصف للحرب الناشبة وملابساتها ، وتصوير لما تصدى له الجيش العثماني ، من نكسات متلاحقة وفجائع متصلة ..

تالله لم ينكسر في الحرب عسكرنا   من اجل قلته او من جبانته
وكيف وهو تفوق الطيس كثرته   وتستعير الرواسي من رزانته
ولكن قائده ما كان يمانه   ولا يبالي بامر من معانته
حتى لقد نفدت في الحرب عينته   بحيث لم يبق منهم في كنانته
فظل يرسف في النيران مرتبكا   مستفرغا كل جهد من متانته
حتى غدا جله للنار ماكلة   وما زحزح شبرا عن مكانته

ثم يقول وهو يفضح خيانة قائد الجيش ولهوه واستهتاره :

ليس الفرار لجند المسلمين الا   ان الفرار للكفر في ديانته
وكيف يغلب جيش كان قائده   يحفه بجيوش من خيانته
فالجيش تلتهم النيران انفسه   وقائد الجيش لاه في مجانته
اقام في القصف والاجناد طاوية   معاقرا بهناء بنت حانته

واخيرا يطلق الشاعر حسرة كاوية من اغواره :

لهفي على الجيش جيش المسلمين فقد   قضى ولم يقض شيئا من لبانته

وللرصافي قصيدة « الوطن والجهاد » نظمها على اثر دخول الامبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ - ١٩١٨ ، مستنهضا فيها المسلمين الى الجهاد ، ومستحثا الهمم من اجل صيانة الوطن والذب عن امجاده وحضارته العريقة ، ومؤلبا اياهم على العدو الذي كشر عن نيوبه ، وتحفز للانقضاض على فريسته ..

مسلم به ان الحرب العالمية الاولى ، مبعثها سباق التسلح الذي طفقت تزاوله بعض دول اوربا ، ثم المطامع التي استأثرت بالبعض الاخر .. من هنا دخل الحلفاء الحرب ضد المانيا ، وقد انضمت الى جانبها الدولة العثمانية ..

وكان من الطبيعي ، والحالة هذه ، ان يقول الرصافي كعادته ، وفاء منه لدولته ، ما جادت به قريحته الشعرية الفياضة :

يا قوم ان العدا قد هاجموا الوطنا   فانضوا الصوارم واحموا الاهل والسكنا
واستنفروا لعدو الله كل فتى   ممن نأى في اقاصي ارضكم ودنا
واستنهضوا من بني الاسلام قاطبة   من يسكن البدو والارياف والمدنا
واستقتلوا في سبيل الذود عن وطن   به تقيمون من دين الله والسننا

ثم يقف الرصافي متحمسا ، ليهجو اولئك الذين خانوا الله والاسلام والوطن ، لمشايعتهم الانكليز وتواطؤهم معهم ، لقاء جاه زمني زائف .. وبالرغم من هذا كله فانه يتفاءل ، ويمجد وطن الاسلام الذي يحميه جيشه ، ويرد كيد الاعداء الى نحورهم ، ويفصح عن الاحزان المطبقة على الافاق ..

لا زلت يا وطن الاسلام منتصرا   بالجيش يزحف من ابنائك الامنا
يرد عنك يد الاعداء خاسرة   ويكشف الغم عن افقيك والمحنا
سعديك من وطن جلت مفاخره   عن الزوال فلا تخشى بلى وفنا
تالله ان معاليك التي سلفت   تعي الفصاحة والتبيان واللسنا

بغداد   وحيد الدين بهاء الدين

سحر الغروب

حار فكري وناظري أي حسن
لاح أسنى في الارض ام في السماء
يا لسحر الغروب تعرض فيه
رائعات السنى لعين الرائي
مشهد اثر مشهد مثل حسنا
ء تهادت تيها ورا حسناء
وهنا خضرة توشت بزهر
وهناك اللهيب من حول ماء
أشكل الامر بامتزاج الجمالي
ـن امتزاج المياه بالصهباء
فكأن النائي قريب منال
وكأن القريب ذاك النائي

امريكا   نعمة الحاج

الصغيرة تضحك وترقص . شيء مبهج اثارها . الفرحة تزغرد في عينيها . ركضت نحو جدها المنهمك باعداد نارجيلته وقهوته وتعلقت بقدميه واللهفة تصرخ في عينيها :

زدو .. زدو .. بيسة .. اوه .. اوه .

وإشارت الى الخارج بيدها الصغيرة الناعمة .

كانت الصغيرة اغرودة البيت الحلوة بحركاتها المحببة . فقد توقف والدي منذ سنين عن الانجاب . وعادت شقيقتي بعد سنة زواجها . واطلت صغيرتها على الدنيا فأبهجت البيت بزقزقة حلوة ، جعلت البيت يزهر ، وتعمه الحركة من جديد . الارض اليباس اينعت وامرعت بفنوة جديدة ، وحياة جديدة ، وزهو جديد . واطلق الجد على الصغيرة اسم « نادرة » وكانت نادرة في كل شيء . في وجهها المنمنم الصغير ، في لثغتها الرقيقة ، في نعومة اندى من الندى وارق من الحرير .

اصبحت الصغيرة لولب البيت المتحرك ... وكان عمرها آنذاك سنة ونصف عندما اقتربت من جدها وهي تنادي ملهوفة متمسكة بقدميه، ناظرة في عينيه وبلهفة حرى تردد :

زدو .. زدو ... بيسة .. اوه

يرفعها بيديه ، وينظر في عينيها المتوسلتين ويمضي بجسدها الصغير الفض الى حيث تشير بأصبعها الرخص . عند باب الدار هرة صغيرة بصوف بني غزير طويل تموء، وتنظر بعينين زرقاوين براقتين الى القادمين ، وسرعان ما تقدمت تتمسح بقدمي الجد الطويلتين وتدندن معلنة مهادنتها ومحبتها لاهل البيت .

انزل والدي الصغيرة الى الارض وقربها من الهرة ، فخافت والتصقت بالجدار ولكن لم يكد يأتي المساء حتى انعقدت اواصر الصداقة بين الصغيرة والهرة . عندما حضرت امي الى المنزل حاولت طرد الهرة لان ابي كان يكره القطط ويعتبرها ناقلة للجراثيم ... لكنه قال لها .. هذه القطة ضيفة « ياسمينة » المنزل فاتركيها لها .

عندما انعقد مجلس العائلة في المساء بعد العشاء مباشرة . كانت اصابع ابي تنقر بالملقط على طرف دائرة النارجيلة النحاسية بايقاع جميل وكانت الصغيرة الحلوة كالفراشة الملونة تدور وتدور .. ترقص وترقص ... ثم تتقدم من جدها لتأخذ رشفة من فنجال القهوة وتعود الى الرقص والدوران من جديد . ونحن نصفق ونضحك مبتهجين فقد دخل على العائلة ضيف جديد . لم نحلم بمثله يوما . الهرة



بقلم رياض نصور

الصغيرة بصوفها البني الطويل ، وتمسحها بالاقدام ، ورنرنتها المتواصلة . هكذا أثرت العائلة . ملكت صغيرتان « هرة وفتاة » ما احلاهن تتداعبان وترقصان وتملآن البيت بهجة وحبورا وزقزقة مفرحة . لا شيء يضاهي هذا الانطلاق الملون العابث . « نادرة » تحمل خيطا رفيعا وتركض دائرة في البيت والقطة من ورائها تلاحق الخيط قافزة عابثة في كر وفر .. ونحن نتفرج على فصول المسرحية المحببة مصفقين ضاحكين .



الصغيرة والهرة ملحمة عبث وضحك ولعب . أهزوجة متواصلة الحلقات . مسرحية طلقة مبهجة ..

الصغيرتان نمتا . واصبحت القطة تدرك انها والصغيرة أثيرتان حبيبتان للعائلة .. واصبحت « نادرة » تتحدث بطلاقة عن هرتها .. وفي المساء عندما كانت الصغيرة تلوذ الى الفراش الدافيء بعد إحياء حفلتها المعتادة . كانت الهرة تقفز الى الطرف الاخر من الفراش لتنام عند قدمي الصغيرة وهي تدندن كالعادة ..

ذات صباح ... صرخ والدي بصوت عال جدا « يا لطيف » وسمعت حركة غير عادية .. كانت اختي تبكي ... وامي تضرب صدرها بيدها المضمومة . اما اخي فقد اجهش بالبكاء مخبئا وجهه بملء كفيه ...

كان ابي قد دخل الى الخرابة المواجهة للمنزل وخرج منها وفي عينيه آثار دموع ... وحمل صحيفة مليئة بالماء وبعض الطعام .. ذهبت الى هناك . رايت القطة متكومة على بعضها . وخيط رفيع من الدماء يخضب فمها ، وهي تموء مواء رتيبا موصولا .. جرت نفسها حتى الصفيحة واخذت قليلا من الماء . لم أعد اقوى على النظر . احسست بقلبي يدمى وبالدموع تتساقط مدرارة على خدي .

اخذني ابي من ذراعي مرددا : لا تخبروا الصغيرة .. لا تدعوها ترى الهرة . وان سألت عنها ، قولوا لها : ستعود ذات مساء .

وكيف جرى الحادث ؟ .

عندما حضر بائع الحليب ، فتحنا الباب . تسللت الهرة من بين اقدامنا ومضت تعدو في الشارع . عبرت عربة مسرعة يجرها حصانان ... مرت عجلاتها فوق ظهر القطة الفض .. صرخت أنا .. توقف السائق نظر الى الوراء .. كانت القطة تموء

وتزحف باتجاهي كنت اتألم وانا اكاد اهوي الى الارض .. قال سائق العربة بغضب : يا للمصيبة انها هرة! وقهقه ضاحكا وهو يمضي ضاربا الحصانين بالسوط . ومضى وقهقهته تمتزج بضجيج العجلات المجرمة .

واحسست ان ابي لم يعد يقوى على الكلام .. وانا لم اعد اقوى على السؤال .

دخلت المنزل لاشرب فنجال القهوة قبل ذهابي الى الوظيفة . كانت نادرة قد استيقظت تسأل عن هرتها ... كانت تنظر الينا فردا فردا وتدور بعينيها العسليتين في ارجاء الدار تنادي قطتها وهي تفتش الغرف غرفة غرفة . واحسسنا بدنو العاصفة . اخذها جدها بذراعيه قائلا : تعالي ! يا ياسمينتي تعالي ، سأشتري لك كوزا من الذرة ...

نسيت الطفلة قطتها الى حين وهي تأخذ بيد جدها وتمضي . ولكن عندما عادت أحست ان المنزل قد خلا من رفيقتها الدائمة .

كان ابي يتسلل الى الخرابة باستمرار حاملا للقطة الطعام والشراب ، ولكنه كف فجأة عن ذلك ..

اما الطفلة ، فلم تكن تكف عن السؤال . كنا نقول لها انها ستأتي في المساء . ويأتي المساء فنقول لها انها ستعود مع الصباح . وجاء يوم كفت به الطفلة عن السؤال . وانزوت ياسمينة الدار لا ترقص ولا تدور ، ولا تأخذ من فنجال رشفات من القهوة .. كانت تتطلع عبر النافذة بصمت وتساؤل وحيرة ؟ ... واصيبت فجأة بالحمى ، وانزوت في فراشها الصغير ، وجلست جدتها بجانبها تحكي لها الحكايات . هزلت الصغيرة ، ورق عودها . كانت ترفض تناول الدواء وكنا جميعا خائفين ، يخيم فوق رؤوسنا الذعر . نخاف شيئا مجهولا يهددنا ونحاول جميعا جاهدين أن نرضي ياسمينة الدار . ان نجعل البهجة تعود الى الوجه الصغير الملائكي ، وان تعود الفرحة وأشراقة الحياة الى العينين العسليتين . كنا نعود صغارا نقفز ونضحك ونغني لننتزع الابتسامة من بين شفتيها الرقيقتين .

لكن كل ما كنا نفعله لها كان يقف حائلا بيننا وبين اقناعها بشرب الدواء . اصبحت الفتاة شاغل العائلة وكان ابي يعلم انها لن تشربه ما لم يحضر رجلا غريبا تظنه الطبيب فتخافه وتشرب الدواء . كان ابي عندما يحين الوقت ينادي أي عابر ويرجوه قائلا : طفلتنا لا تشرب الدواء ، مريضة تحرقها الحمى ، ارجوك ان تدخل معي الدار لتشرب الصغيرة دواءها . وكانت هذه هي الحيلة الوحيدة الناجحة .

ذات مساء . لم يدع ابي رجلا غريبا . كانت الصغيرة ترفض شرب الدواء . اعتمر طربوشه ولف راسه بشال اتقاء للبرد القارس ومضى .. عاد بعد ساعة حاملا قطة صغيرة بشعر خالط سواده بياضه . كانت القطة تموء ، وتمد مخالبها بشراسة محاولة التملص من بين يديه . رفعت الصغيرة راسها من الفراش وادارته باتجاه والدي مرددة : هذه ليست بيستي .

فأجابها ابي بهدوء : لا انها بيستك ، ذهبت الخبيثة الى السوق وغيرت فستانها .

كانت امي قد ذهبت الى المطبخ محضرة طعاما للهرة المذعورة .. التي استأنست قليلا ثم مضت هاربة متوارية تحت الخزانة . حاولنا اخراجها بدون جدوى .

رفعت الصغيرة راسها وشربت الدواء . كنا نحاول ساعتها اخراج القطة من تحت الخزانة .. وكانت الصغيرة تضحك . انها اول مرة تضحك بها بعدما فقدت قطتها .

كنا ننظر الى بعضنا بعضا والبهجة تغمر قلوبنا . ومرت امي يدها فوق جبهة الطفلة مرددة : لقد خفت الحمى .

وتردد صوت الصغيرة مختلطا بين الضحك والبكاء :

ـ لم اعد احبها ... اصبحت رذيلة .. يا ليتها لم تذهب للسوق ولم تشتر فستانا جديدا .

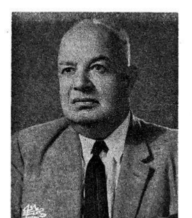
واغرقنا في الضحك ، واغرقت معنا الصغيرة . وعندما أشرقت في عينيها الحياة ، عادت اشراقة الحب والحنان الى البيت من جديد .

اللاذقية — رياض نصور

الموسيقي الاعمى

أناميل يشيع بها الضياء ... وتلعب باللحون كما تشاء
كأن بها من الحدقات عشرا ... فكل يد بها خمس سواء
وحط بكل أنملة هزار ... يزقزق ثم يحجبه الفضاء
فآنا كالربيع نعي هديرا ... لطيفا ثم يعقبه الشتاء
فتمتمة وهمهمة وهمس ... كما جمع الحبيبين اللقاء
وأعمى في تفننه بصير ... يلحن مثلما توحي السماء
شبيه الطير تفقا مقلتاه ... ليقضي العمر يشغله الغناء
ولا يدري بما في الافق يجري ... أطل الصبح او هبط المساء

زحلة ـ لبنان — رياض معلوف



محمد العدناني

اغلاط شائعة

بقلم محمد العدناني

* * *

لا بد لي في صدر هذه الحلقة من سلسلة مقالاتي ، من الاشارة الى انني استشهد ، في كثير من التصويبات ، بآي من الذكر الحكيم ، وهو المرجع الاسمي في اللغة العربية . ولكن استحالة وضع الحركات على الحروف بالاسلوب الذي تطبع به مجلتنا الفذة « الاديب » الفراء ، حتم علي حذف تلك الآيات الكريمة ، خوفا من ان يلحن بعض من يقراها ، وساكتفي بذكر اسم السورة ورقم الآية هنـا ، ليرجع اليهما من يشاء ، واعدا بايرادها كاملة في الكتاب ، الذيسأباشر بطبعه بعد الانتهاء من نشر مقالاتي المتتابعة هذه ، على صفحـات هذه المجلـة الدسمة ، ان شاء اللـه .

ولا بد لي ايضا من ان اكرر رجائي الى قمم الادب في العالـم العربي ، ان يبدوا ملاحظاتهم اما مرسلة الى « بريد الاديـب » ، او الي في منزلي ، وعنواني : صيدا ،لبنان ، فانا لا آمن العثار ، رغم أنني أفرغ جهدي في نخل المعاجم وامهات كتب الادب الموجودة لدي . ولست ادعي الكمال ، فالكمال من صفاته تعالى وحده ، ولكنني ادعي أنني ممن لا يجحدون الايدي البيض ، التي يسديها الي الادباء المحض ، الذين نذروا نفوسهم لخدمة الفصحى باخلاص شديد ، لا يبغون مـن وراء ذلك سوى خدمة امتهم العظيمة ، ولغتهم الخالدة ، عندما يوجهون الي ملاحظاتهم النزيهة بتواضع جم ، وهدوء تام .

الثلاث سنوات الاولى

ويقولون : لم يرسل الينا رسـالة في الثلاث سـنوات الاولـى . والصـواب : (فـي ثـلاث السـنوات الاولـى) . والقاعدة تقول : اذا كان المعدود مجرورا ، فالتعريف له ، واذا كـان منصوبا ، فالتعريف لعدده . نحو : جاء السبعة عشر رجلا والخمسـون امرأة . وأصمت سبعمئة الدينار (أنا ارى ان نكتب سبعمئة دون ألف بعد الميـم) .

وأجاز قليل من النحاة تعريف الجزأين في المركب الاضافـي ، فقالوا : السبع المعارك والمئة الجندي . وهذا الجواز ضعيف ، لان أئمة النحاة يمنعون تعريف المضاف .

ثمـانيـــا

ويقولون : كانت الفتيات ثمانيا . والصواب : (كانت الفتيات ثماني) لانه لا يشترط في الكلمات التي على وزن منتهى الجمـوع ان تكـون جمعا ، لكي تمنع من الصرف . فكل اسم جاء على هذه الصيغة ـ وان كان مفردا ـ ممنوع من الصرف ، كسراويل (اسم مفرد مؤنث ، وقـد يذكر) ، وطباشير ، وشراحيل (علم على رجل . فمن قال انه عربي ، منعه من الصرف ، لانه على وزن منتهى الجموع ، ومن قال انه أعجمي منعه للعلمية والعجمة ، مضيفا اليهما صيغة منتهى الجموع) .

ثم جـاء بعد ذلـك

ويقولون : ثم جاء خالد بعد ذلك . والصواب : (ثم جـاء خـالد) ، بحذف (بعد ذلك) ، لان (ثم) تحمل المعنى نفسه .

أثنـاء خطـابـه

ويقولون : قال نزار أثناء خطابه . والصواب : (في أثناء خطابـه) ، لان كلمة (اثناء) هنا ليست ظرفا ، ولا مضافة الى ما تكتسب منـه الظرفيـة ، لتستغني بها عن حرف الجر . وهي جمع (ثني) بكسـر الثاء وتسكين النون ، و (اثناء الشيء) : تضاعيفه .

وقد قال التاج في مستدركه : كان ذلك في اثناء كذا ، اي : في غضونـه .

هنالك مخرج واحد لاستعمال (اثناء) منصوبة ، وذلـك بنصبهـا على نزع الخافض .

العـدد الترتيبـي (١٢)

ويقولون : هذه هي المقالة الثانية عشرة (بضم الثانية ، وبناء عشرة على الفتح) ، واطلعت على المحاضرة الثانية عشرة (بكسر الثانيـة ، وبناء عشرة على الفتح) . والصواب : الثانية عشرة (ببناء الجزأيـن على الفتح في كلتا الجملتين) ، لان الاعداد المركبة (مـن ١١ ـ ١٩) كلها مبني بجزأيها على الفتح ، ويشذ (اثنا ، اثنتا) ، لانهما تعربان ملحقتين بالمثنى ، فنقول : جاء اثنا عشر سربـا من الطائـرات . شاهدت اثنتي عشرة بارجة .

اما في العدد الترتيبي فان (الثاني والثانية) من العـدد (١٢) ليسا ملحقين بالمثنى ، لذا يعودان الى البناء على الفتح ، شانهما فـي ذلك شأن الاعداد المركبة الاخرى ، فنقول :

نمنا في الغرفة الثانية عشرة (ببناء جزأي العدد المركب علىالفتح).
هذه هي الغرفة الثانية عشرة (ببناء جزأي العدد المركب على الفتح).

الحادي عشر والثاني عشر

اما الاعداد المركبة التي يكون صدرها (الجزء الاول منها) منتهيا بياء ، فان هذا الجزء يكون مبنيا على السكون ، فنقول : جاء الحـادي عشر والثاني عشر ، ورأيت الحادي عشر والثاني عشر ، ومررت بالحادي عشر والثاني عشر (بتسكين ياء الحادي والثاني في الامثلة كلها ، وبنـاء عشر على الفتح) .

اما شين (عشر) في الاعداد المركبة فتفتح دائما ، وشين (عشرة) فتسكن دائمـا .

ثـــوار

ويخطئون من يجمع (ثائر) على (ثوار) بضم الثاء وتشديد الواو ، لان المعاجم لا تورد جمع التكسير (ثوار) . والمعاجم لا تورد هذا الجمع لانه قياسي ، اذ ان من جموع التكسير على وزن فعال (بضم الفاء وتشديد العين) ، هي جموع كل صفة صحيحة اللام على وزن (فاعل) ، مثل : كاتب كتاب ، قائم قوام ، ثائر ثوار ، صائم صوام (بضم الحرف الاول من هذه الجموع وتشديد ثانيها) .

جاء في طلب الدين

ويقولون : جاءه في طلب الدين . والصواب : جاء يطالبه بالدين ، او لمطالبته بالدين ، او جاءه مطالبا بالدين .

أجاب على سؤاله

ويقولون : أجاب على سؤاله . والصواب : أجاب سؤاله ، او عن سؤاله ، او الى سؤاله . راجع الآية ٣١ من سورة الاحقاف .

وقال كعب بن سعد الغنوي ، يرثي أخاه ابا المغوار :

وداع دعا : يا من يجيب الى الندا — فلم يستجبه عند ذاك مجيب
فقلت : ادع أخرى ، وارفع الصوت رفعة — لعل ابا المغوار منك قريب

جابهت عدوي

ويقولون : جابهت عدوي ، أي استقبلته بكلام فيه غلظة ، واصبته بما يكره . والصواب : جبهت (بفتح الجيم والباء) عدوي ، أي لقيته بمكروه (نقله الجوهري) ، وهو مجاز .

وقال ابن سيده في المحكم : جبهته : اذا استقبلته بكلام فيه غلظة . وجبهته بالمكروه : اذا استقبلته به .

جابهه وجها لوجه

ويقولون : أجابه المخاطر وجها لوجه . والصواب : أجابه المخاطر. فيستعملون (جابه) قياسا على عاين و واجه و شافه ، وهذا لم يسمع عن العرب . اما اذا كان المراد بالمجابهة المقابلة جبهة لجبهة ، كان ذكر (وجها لوجه) حشوا سخيفا .

ياكلون خبزا وجبنا

ويقولون : ياكل الفقراء خبزا وجبنا (بكسر الجيم) . والصواب : جبنا (بضم الجيم) ، او جبنا (بضم الجيم والباء) ، او جبنا (بضم الجيم والباء وتشديد النون) .

وتسمى القطعة من الجبن : جبنة (بضم الجيم وتسكين الباء) .

والجبن (بضم الجيم وتسكين الباء) هو ضعف القلب من شدة الخوف ، فالرجل جبان ، او جبان (بفتح الجيم وتشديد الباء) ، او جبين (بفتح الجيم) .

جبهة وجبين

ويخطئون عندما يظنون ان (الجبهة) و (الجبين) اسمان لمسمى واحد. فالجبهة هي مستوى ما بين الحاجبين الى الناصية . بينما الجبين هو ناحية الجبهة من محاذاة النزعة الى الصدغ . وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها . ويجمع جبين على أجبن (بتسكين الجيم وضم الباء) ، وأجبنة (بتسكين الجيم وكسر الباء) ، وجبن (بضم الجيم والباء) . راجع الآية ١٠٣ من سورة الصافات .

اما جمع جبهة فهو جباه وجبهات (بكسر الجيم في الاولى ، وفتح الجيم والباء في الثانية) . راجع الآية ٣٦ من سورة التوبة .

مدينة جدة

ويقولون : سافر الى مدينة جدة (بفتح الجيم) . والصواب : الى مدينة جدة (بضم الجيم) ، وهي مدينة سعودية على البحر الاحمر ، لا تبعد كثيرا عن مكة المكرمة .

جذع الشجرة

ويقولون : جذع الشجرة . والصواب : ساق الشجرة ، لان الجذع هو ساق النخلة وحدها ، بينما نسمي جموع جذوع الاشجار الاخرى سوقا . راجع الآية ٢٤ من سورة مريم .

كبرياء جريحة

ويقولون : كبرياء (بتنوين كبرياء) جريحة . والصواب : كبرياء (بضمة على الهمزة)جريح . لان (كبرياء) اسم ممنوع من الصرف لوجود الف التانيث الممدودة في آخره كصحراء وعذراء وزكرياء (بجر هذه الاسماء الثلاثة بالفتحة) . ولان الصفة المشبهة فعيل (جريح) هنا بمعنى المفعول ، لذلك يستوي فيها المذكر والمؤنث ، مثل (فعول) اذا كانت بمعنى الفاعل ، فنقول : رجل قتيل وامراة قتيل . ورجل صبور وامراة صبور .

الفدائيات الجريحات

ويقولون : عادت الفدائيات الجريحات الى ميدان المعركة . والصواب : عادت الفدائيات الجرحى ، لاننا نقول : رجل جريح وامراة جريح ، وبما ان المؤنث لا تدخله التاء المربوطة ، فاننا لا يجوز لنا ان نجمعه جمع مؤنث سالما .

عملية جراحية

ويقولون : أجريت لفلان عملية جراحية . والصواب : اجريت له عملية جرحية ، لان القاعدة عند النسبة الى كلمة غير مفردة (مثناة او جمع) ، فاننا نردها الى مفردها ثم نضيف اليها ياء النسبة . فالنسبة الى العراقين والفرقدين والكتب والاخلاق والقبائل والسود ، هي : عراقي وفرقدي وكتابي وخلقي وقبلي واسودي (ان كانت السود جمع اسود) وسوداوي (ان كانت السود جمع سوداء) .

ويشذ عن هذه القاعدة ما ياتي :

(١) الجمع الذي لا واحد له . مثل : عباديد وأبابيل وتجاليد .
(٢) الجمع الذي يجري على غير مفرده . مثل : ملامح ومحاسن ومشابه .
(٣) الجمع الذي لا واحد له من لفظه (اسم الجمع) . مثل : قوم ومعشر وجيش .
(٤) الجمع الذي يفرق بينه وبين واحده بياء النسب او تاء التانيث . مثل : عرب واعراب وروم وتمر وتفاح (اسم الجنس الجمعي) .

جميع هذه ينسب اليها على لفظها ، فنقول : عباديدي (العباديد : الفرق من الناس والخيل الذاهبة في كل وجه ، والاكام ، والطرق البعيدة) ، ومحاسني ، وقومي ، وعربي ، وتمري وتفاحي .

جريدة

ويقولون : قرأ جريدة الصباح . والصواب : قرأ صحيفة الصباح ، لان كلمة (جريدة) مولدة ، ولا حاجة بنا الى استعمالها ما دام في الفصحى ما يؤدي معناها . أما معاني (جريدة) التي توردها المعاجم فهي :

(١) الجريدة : الجماعة من الخيل .
(٢) الجريدة : سعفة طويلة رطبة . وقال الفارسي : هي سعفة اذا كانت رطبة ، وجريدة اذا كانت يابسة . وقيل : الجريدة للنخلة كالقضيب للشجرة . والجمع : جريد وجرائد .

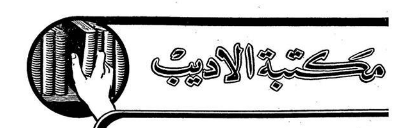
صيدا ـ لبنان   محمد العدناني

صنين زاه بحلم

★

أين مني خواطري وخيالي   أين عهدي وطيبات الليالي
كنت في «الجرد» انشد الشعر بدعا   واصوغ القريض صوغ اللآلي
واناجي النجوم أقبس منها   ما يضيء الفؤاد من آمالي
وأصوغ السنا اساور حب   لحبيب صافي السريرة ، غال
وأعب الجمال في الروض عبا   ساحبا مطرفي على الآزال
سابحا في عوالم من جلال ،   حالما في عوالم من كمال
ان لبنان جنة الله في الار   ض ، ومجلى مفاخر الاجيال
ريقات الجمال تجثم فيه   من جنان خضر وشم جبال
ووهاد عميقة الغور تحكي   عمق جرحي ، من باهظ الاشغال
وتلال ينساب فيها ضباب   كانسياب الامال في أوصالي
وغياض من دوحه حالمات   رافعات الجبين صوب الاعالي
ناعسات الجفون ، مختلجات ،   هائمات ترف في الآصال
والسواقي الخضراء ترسل لحنا   هز في الكرم غافيات الدوالي
وانا ذاهل الخطى في سكون   كسكون الطيوف في الاطلال
امتطي جانح الخيال واطوي   عالم الوحي في رحاب الجمال
وأمالي « صنين » زاه بحلم   ابدي الرؤى ، عديم المثال
غمرته الشموس من كل ضوء   عبقري السنى ، مفيض الجلال
تتهادى الالوان سجواء حينا   وأحايين دفقة الشلال
منظر ساحر مهيب عجيب   هاج في النفس الف الف سؤال
وعلى السفح منبع كوثري   أوحدي المياه كالسلسال
فهو آنا يبص بصا عجيبا   كالحسام الصقيل عند النزال
وأوانا مبلور مثل شعر   واشب النغم شائق سيال
لم نمتع بالعيش فيه طويلا ،   فهجرناه طامعين بمال
فهدرنا شبابنا واكتوينا   بآلام ، تضج بالاهوال
وسعينا وراء الثراء وصلنا   في مجال الجهاد كل مصال
فحصدنا بعد العناء هواء   وكتبنا على بساط الرمال
فاستكانت آمالنا واستنامت   في ربى النفس أمنيات غوال
وحيينا في عيشة تشبه المو   ت جفافا ، والدر في الاوحال
وعدتنا عن الرجوع عواد ،   ودواه دواهم كالنصال
فاعتصمنا بالصبر ، وهو جميل ،   وقنعنا من عودنا بالخيال

لاباز ـ بوليفيا   جورج الكعدي



عنبر ورمـــاد

تاليف السيدة سلمى الحفار الكزبري ـ ٢١٨ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار بيروت ببيروت

من الكتب ما يمتع ويؤنس ، ويأخذ بالقاريء معه في رحلة لذيذة عبر آفاق الفكر والانسانية ، فيستسلم اليه القاريء هانئا ناعما ، ويتملى معه وجوها وآفاقا جديدة سرعان ما يألفها وينسجم معها في صداقة حميمة .

من هذه الكتب المؤنسة الممتعة كتاب « عنبر ورماد » ، للاديبة السورية السيدة سلمى الحفار الكزبري ، الذي يضم مذكراتها الشخصية من عام ١٩٢٢ ـ عام مولدها ـ الى نهاية عام ١٩٥٥ . رحلة من العمر استغرقت ثلاثا وثلاثين سنة ، فيها الحلاوة والمرارة ، وفيها من الوجوه والاحداث والبيئات الوان والوان يؤلف بينها قلم مرهف ، يحسن التعبير بأسلوب طلي رشيق ، فاذا انت مع ما ينقلك اليه من اجواء تشعر بالغبطة والراحة ، وتتمنى ان تطول رحلتك بين الصفحات الى ما شاء الله . وحين يقف بك الكتاب عند نهاية الصفحة ٢١٥ ، قبل الفهرس ، تستيقظ مكتئبا لان الرحلة لم تبلغ بك نهايتها ، وما يزال بينك وبين النهاية رحلة اخرى لا تدري متى تعود فتهيئها المؤلفة لتستانف معها استمتاعك واغتباطك بالوصف الجميل والحديث الانيق .

يتالف الكتاب من مقدمة واثنين وعشرين فصلا ، ويقع في ٢١٨ صفحة من القطع الكبير . واذا كان الكتاب مذكرات شخصية ، فهذه المذكرات تجمع بين السيرة الشخصية العادية لانسانة ـ كسائر الناس العاديين ـ ولدت ، وكبرت ، ودخلت المدرسة ، وتزوجت ، وانجبت، وشاركت في حياة مجتمعها ، ورحلت في اقطار متعددة ، وألفت عددا من الكتب وبين الاحداث الوطنية والسياسية في فترة مزدحمة بالاحداث السياسية والوطنية . ذلك لان سلمى الحفار ، ابنة الزعيم السوري المغفور له لطفي الحفار ، ولدت ونشأت في بيت شارك مشاركة فعالة وطويلة في الحياة الوطنية والسياسية في سوريا وفي الحركة القومية العربية الحديثة وكان ذلك البيت ملتقى لاعلام الوطنية السوريين والعرب منذ ان اشترك صاحبه ـ لطفي الحفار ـ في تأسيس « جمعية النهضة » العربية السرية عام ١٩٠٦ ، في عهد الحكم العثماني ، حتى انتقاله الى رحمة الله في السادس من شباط عام ١٩٦٨ . ثم اقترنت في مطلع شبابها بالسيد محمد كرامة ، شقيق الزعيم اللبناني الراحل المغفور له عبد الحميد كرامي ، وعم الرئيس اللبناني اليوم السيد رشيد كرامي . ـ واقترنت للمرة الثانية ـ بعد وفاة محمد كرامة بسنوات ـ بالدكتور نادر الكزبري الذي كان حينئذ استاذا في كلية الحقوق في جامعة دمشق ، ومستشارا في مجلس الشورى ، ثم اصبح امينا عاما لوزارة الخارجية السورية ، ثم سفيرا لسوريا في اميركا اللاتينية ، وفي اسبانيا ، فشارك بذلك مشاركة شخصية في الحياة السياسية والوطنية في سوريا . ولذلك لم يكن ممكنا ان تنشأ سلمى في منأى عن التأثر المباشر باحداث الوطن منذ طفولتها ، ولم يكن بالتالي ممكنا ان تخلو مذكراتها من كل ذلك . وهي لو خلت منه لفقدت عنصرا كبيرا من عناصر قوتها ، ولذتها ، واهميتها .

ولقد اتاحت لها البيئة الراقية الغنية التي عاشت فيها ان تعرف اوساطا لها اهميتها في عالم الفكر والادب ، وفي عالم السياسة والوطنية ، وان تتأثر تأثرا مباشرا بهذه الاوساط ، فيظهر اثرها بارزا في مذكراتها بعد ان ظهر بارزا في حياتها .

ثم كانت الرحلات ايضا ذات اثر بارز في حياة المؤلفة وفي نضجها الفكري ، وفي اتساع ثقافتها واطلاعها ، كما كان للغات المتعددة التي درستها ـ في المدرسة وعلى نفسها ـ ولا سيما اللغتين الفرنسية والاسبانية اللتين تجيدهما اجادة تامة ، اثر كبير في سعة اطلاعها ، وتعدد وجوه ثقافتها . يضاف الى كل ذلك ـ او بالاحرى قبل كل ذلك ـ شخصية قوية ، طموحة ، مندفعة ، اذا جزعت حينا امام المصائب ، فسرعان ما تنهض لتستانف الطموح بقوة وعناد واندفاع ، او ، كما تقول هي عن نفسها في الصفحة (١٥٧) : « اني امراة عنيدة ، طموح، لا تثني عزيمتي خيبة ، كما لا يسكرني نجاح » .

ولدت سلمى في دمشق عام ١٩٢٢ ، واتمت دراستها الابتدائية والثانوية في مدرسة راهبات الفرنسسكان فيها . وفي خريف عام ١٩٤٢ ، وهي في العشرين من عمرها ، تزوجت زوجها الاول محمد كرامه . ولكن الحياة التي لا ترحم ، لم تدعها تهنأ بذلك الزواج ، فقد كانت الفترة بين الخطوبة ، وولادة ابنها نزيه ، ووفاة زوجها سنة واحدة وثلاثة اشهر . وكانت تلك مأساة نفسية مزلزلة كادت تزعزع حياة الايم الشابة ، لولا ارتباطها بالمولود الذي حل في حياتها محل ابيه ، فأرادت ان تعيش له : ولولا ما كانت تجده من الرعاية والحب والحنان من ابويها ، ومن الزعيم المرحوم عبدالحميد كرامة ، شقيق زوجها الراحل.

وفي عام١٩٤٨ ، وبتشجيع ابوي من الزعيم كرامة نفسه ، اقترنت سلمى بالدكتور نادر الكزبري . وقد انجبت منه ابنتين : ندى ورشا . وانتقلت معه بعدئذ الى اميركا الشمالية والى اسبانيا حين نقل للعمل هناك سفيرا لسوريا فترة من الزمن .

بدأ اهتمامها بالادب وهي طالبة في مدرسة راهبات الفرنسيسكان. وكان لها من تشجيع والدها وتوجيهه دافع ومعين . وصدر اول كتاب لها بعنوان « يوميات » هالة » وهي في السابعة عشرة من العمر ، وكان تسجيلا لمذكراتها الشخصية التي تجمع بين السياسة وتصوير البيئة السورية بعاداتها وتقاليدها .

لقد صدر لها حتى اليوم تسعة مؤلفات ، اثنان منها بالفرنسية، ويحتويان على مجموعة من قصائدها الفرنسية الرقيقة الجميلة . وهناك ثلاث مجموعات اقاصيص هي : (حرمان ـ زوايا ـ الغريبة) ورواية بعنوان « عينان من اشبيلية » استوحتها من البيئة الاسبانية حين كانت مع زوجها السفير في اسبانيا ، وهي في الواقع رواية قوية وجميلة وممتعة . وهناك ايضا كتاب بعنوان « نساء متفوقات » يشتمل على فصول ضافية عن ثلاث عشرة امرأة من اشهر النساء في العالم . وكانت هذه الفصول في الاصل احاديث قصيرة اذيعت من الاذاعة السورية ، ثم توسعت فيها سلمى كثيرا حتى اصبحت مادة دسمة لكتاب غني بالفائـدة .

اما كتابها الجديد « عنبر ورماد » فقد عكفت عليه منذ سنوات . وكانت مترددة في اختيار عنوانه . واذكر انها كانت في رسائلها الى عام ١٩٦٨ تقول انها ستدعوه « ذكريات ورحلات » ، ثم عادت فرأت

(*) أذيع من اذاعة المملكة الاردنية الهاشمية في عمان .

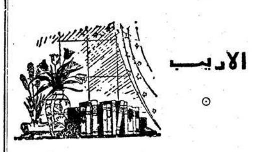
ان تفصل بين الذكريات والرحلات في كتابين منفصلين . ولكن يبدو انها عندما دفعت بالكتاب اخيرا الى الناشر عدلت عن التجزئة وعن العنوان معا ، فجمعت الذكريات مع الرحلات ، وجعلت عنوان الكتاب « عنبر ورماد » . اما الرماد فهو رمز الى الاحداث والوجوه التي غيبها الزمن في الماضي ، واما العنبر فهو الرائحة الطيبة التي تنبعث من تلك الوجوه والذكريات في النفس حين يعود المرء ليبعثها الى الحياة من جديد . وهذا ما يفهم من قولها في ختام مقدمة الكتاب ، وهو : « فالاشخاص الذين نحبهم بعمق ، وكذلك الاحداث التي نعيشها بعمق، يبقى أثرها حيا في ذواتنا ما دامت الحياة ، كالشعلة التي تنير الدرب وتدفيء القلب حتى بعد انطفائها . وكثيرا ما تفوح من رمادها رائحة العنبر » .

وعلى الرغم من اهمية الذكريات والاحداث والشخصيات التي اوردتها سلمى في كتابها هذا ، تظل هذه الاهمية ناقصة ، حتى تكملها ـ وبقوة وروعة ـ اللمحات النفسية ، والافكار الكبيرة ، والمنطق الصريح الجريء ، والاراء المصيبة الحكيمة التي تتناثر هنا وهناك في كل فصل من فصول الكتاب . ويزيد في قيمة هذه المذكرات الشجاعة الادبية المدهشة التي تتحلى بها المؤلفة ، والتي جعلتها تتحدث عن نفسها ، وعن طباعها واخلاقها ، وعمن حولها دون مواربة ولا محاولة للاختفاء وراء الفضائل الكبيرة وحدها ، دون ذكر الاخطاء . وليس هذا غريبا من سيدة قوية الشخصية ، شبت على « الاستقلال في الرأي ، والجنوح الى التحرر من القيود ، لا التحرر من القيم » ، كما تقول في الصفحة (٢٢) من كتابها . وتقول في الصفحة (٧١) كذلك : لقد عودنا ابي على الصراحة والبوح بالحقيقة وان كانت تديننا » .

من امثلة هذه الشجاعة الادبية الحميدة ان سلمى تصف سيرتها في المدرسة (ص ٢٤) فتقول بصراحة من تعترف بالخطا لانها تعتبر الاعتراف به فضيلة : « كنت ثرثارة ، اعلق على الكبيرة والصغيرة ، واضحك ، واضحك زميلاتي ، مما كان يغيظ المعلمات ويدفعهن الى اعطائي اسوأ العلامات في الادب والسلوك » . وتضيف قائلة في الصفحة عينها : « لا بد من الاعتراف بانني كنت حادة الطبع ، كثيرة الحركة ، دقيقة الملاحظة ، مستعدة للاجابة على كل سؤال تقريبا ، ومزودة بأسئلة كثيرة متنوعة ، منها المعقول ومنها المحرج . وهذا ما جعل مدرساتي متفقات على معاقبتي بشدة لردعي عن المشاغبة » .

هذا عن الصراحة والشجاعة الادبية ، اما الاراء الحكيمة ، والتعابير الجميلة التي تمتليء بها فصول الكتاب ، فقد كنت اود لو كان المجال يتسع لآتي باكبر نصيب منها ، ولكنني مضطر الى الاكتفاء باقل القليل لمجرد التمثل والاستشهاد فقط . من ذلك قول المؤلفة في الصفحة (٦٢) : « ان المرح يغذي الفكر والجسم اضعاف ما يغذيهما النوم ، كما ان الاسراف في الجد المتواصل والصرامة في الحياة البيتية يسئم الروح ويبلد الذهن ». وفي الصفحة (٨٧) : « ويل للانسان اذا تمت له السعادة ! » ، وفي الصفحة (٩٩) : ثبت لي ان الحياة لا تبتسم الا للباسم ، ولا تمد يد العون الا للقوي الذي يعين نفسه » . وفي الصفحة (١١٠) : « لقد تبين لي بوضوح اننا في الشرق أسرى الناس ، واسرى اعراف بالية مستحكمة فينا » ، وفي الصفحة (١٤١) : « ان التفاؤل والابتسام خير سلاح للمرء في الحياة ، وان الحب والعطاء اغزر ينابيع الهناء » . ولعل اروع ما سجله قلمها في كتابها هذا قولها في الصفحة (١٤٥) : « ان الايتام الحقيقيين هم اولاد الاثرياء .. وذلك لسبب رئيسي واحد هو وجود مربية ترعاهم بدلا من الام ، وخدم يوجهونهم عوضا عن الاب » . ان هذا القول لهو اروع ما قرأت في معناه في حياتي ، ولكن هذه الحقيقة الكبرى يجهلها الذين يهمهم امرها ...

ومن الافكار الاجتماعية والادبية التي تعالجها سلمى معالجة حكيمة بمنطق قوي مقنع أشير بنوع خاص الى رأيها في تعلم لغات جديدة



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في امريكا وآسيا : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٥ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ المنزل ٢٢٥١٣٩

Tel : Dir : 223819 Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

(ص ١١٧) ورأيها في سعي المرأة للحصول على الحقوق السياسية (ص ١٢٩) .

اما اللمحات الذهنية المشرقة اللطيفة فأود ان اقدم مثالا واحدا عليها ، وهو قولها في الصفحة (١٤١) : « عندما خلق مبدع الكون الغزلان انما شاء ، سبحانه ، منح البراري والصحاري لونا من الجمال والرقة عبقريا » .

ان في هذا الكتاب اشياء كثيرة تستحق ان نقف عندها وقوفا طويلا ، لو كان المجال يتسع لذلك . ومن اهمها المواقف الوطنية ، وقوة الوصف في تسجيل الرحلات . فأنت تقرأ الفصل الذي بعنوان « زوجتان في اجازة » ، مثلا ، فتشعر بأنك ترافق الزوجتين خطوة خطوة في رحلتهما الجميلة الى تركيا واليونان ، وتقف معهما حيث تقفان ، وتأكل معهما ما تأكلان ، وتتنزه معهما حيث تتنزهان ، وتشاهد كل ما تشاهدان ، فكأنهما لم تكونا سوى دليلتين لك في رحلتك .

وليت المجال يتسع لنرى شيئا من وقفاتها الوطنية التي تعبر فيها عن شدة تعلقها بدمشق ، وبسوريا عامة .

والخلاصة ان كتاب « عنبر ورماد » ، للسيدة سلمى الحفار الكزبري ، رحلة في الحياة مؤنسة وممتعة يتمنى القارىء لو تطول لتطول معها متعته ولذته .

عمان ـ الاردن **عيسى الناعوري**

●

فلسطين وكبرياء الجرح

ديوان شعر ـ حسن عبد الله القرشي ـ ١٧٢ صفحة ـ منشورات دار العودة ببيروت

ما زال الشعر بأساليبه ومعانيه او بأشكاله ومضامينه ، وما تضمه الاشكال من لفظ مونق وتعبير مشرق مموسق ، وما تحمله المضامين من افكار وعواطف وصور ، ما زال في صدارة الاجناس الادبية ، وما زال يستميلنا الى قراءته ، ويستهوينا الى حفظه ودراسته ، ويستثير اعجابنا به ، وتقديرنا لقائليه ، على الرغم من تعدد الاجناس الادبية وكثرتها وتزاحمها ، وعلى الرغم من انصراف كثير من المعاصرين عن الشعر الرفيع الى ما يشبه الشعر ، او الى ما يتشبه به ، مثلما حاول الغراب ان يتشبه بالطاوس ، ففقد الغرابية ، وحرم الطاوسية .

واذا كان بعض الدارسين قد اسفوا لان دولة الشعر دالت ، ودوحته قد صوحت ، بعد ان مضى شوقي ومطران والعقاد والجارم والرصافي والزهاوي والخوري واضرابهم ، فانهم واهمون ، لان العالم العربي ما زال حفيا بالشعر ، ثريا بالشعراء ، ولان الشعر في عصوره السابقة قد الف ان تتعاقب عليه فترات من قوة وضعف ، وابتكار ومحاكاة ، كأنما يستجم زمنا لينهض ، ويتلبث حينا ليقفز .

لقد سنحت لي هذه الخواطر وانا أقرأ ديوان « فلسطين وكبرياء الجرح » للشاعر حسن عبد الله القرشي .

والمتابعون للحركة الادبية يعلمون ان الاستاذ القرشي من الممع شعراء المملكة العربية السعودية ، وانه كان يوقع على قيثارة الشعر منذ صباه ، ولم يزل يوقع عليها ، حتى بلغت دواوينه عشرة ، وهذا الديوان عاشرها .

الدوان مطبوع بدار العودة ببيروت سنة ١٩٧٠ طباعة انيقة على ورق فاخر في ١٧٢ صفحة من القطع الصغير ، وبه عشرون قصيدة ومقطوعة ، عدد ابياتها وسطورها ٧٦٤ . وموضوعه كما ينبىء عنوانه « فلسطين وكبرياء الجرح » مثل « صرخة الثأر » التي انشدت في مهرجان الشعر التاسع ببغداد و « في رحاب الكرامة » التي سجلت بطولة المجاهدين الذين دمروا الجيش الاسرائيلي و « فدائيون » و « دم الشهداء » و « شعب مارد » .

ولكن الشاعر ضم الى القصائد الفلسطينية بعض ما يعنيه وحده ، فلا صلة له بفلسطين ولا بقضية العرب ، مثل « زارع الاشواك » و « مذبح الحب » و « مهاجران الى القمر » وليته لم يفعل ، لتبقى وحدة الموضوع ووحدة العنوان .

واذ كانت نكبة فلسطين وجرائم الصهيونية فيها نكبة لكل عربي ولكل مسلم ، اتسمت قصائد الديوان بالتهاب العواطف ، واتقاد المشاعر ، حتى لنحس ان الشاعر ملتاع ، تتنفس لوعته في نقمته من الصهيونية ، وفي برمه بقومه ، وفي حزنه الاليم الذي يستسر حينا ويستعلن آخر .

من هذا ضيقه بما يرى من ضعف ترفضه عزة العرب ، وهوان يأباه ماضيهم المجيد ، وتخاذل ينفر منه املهم المتوثب ، فيود لو انهم يقتدون بأسلافهم الغطاريف، ويصور سلاحهم ظمآن الى الجلاد والقراع، لتحرير الوطن ، وحماية العرض ، وصيانة الكرامة .

ثم ينظر الى الوطن العربي الذي كان عزيزا ابيا ، والى صحاريه التي ما ذلت قط ، فينجعه انها صارت تشكو هوانها ، وتتشوف الى البطل الذي يفديها ويحميها .

ويمضه ما تقترفه اسرائيل من جرم بشع ومنكر دنيء بنساء العرب ، فيصورهن سبايا يتطلعن الى من يفك اسارهن ، ثم يفيض حزنه فيسكبه على الوطن كله شقاء واحزانا :

شرق الكأس بالاسى عربد الويـ ـل فأين الشراة من عدنان ؟
أين غسان في ملاحمها البكـ ـر واين السراة من قحطان ؟
حنت البيض في الغمود وضاقت ملجمات الخيول بالارسان
شكت البيد ذلها ليس من ها رون يورى الوغى ومن نعمان
ملت الخود أسرها وسباها اين من يثأرون للاظعان ؟
ضجت الارض بالشقاء وفاضت نبضات القلوب بالاحزان

ويتقمص نفسية لاجيء مشرد يئن ، منكرا حاضره الكئيب المعتم ، متشككا في انه سليل الصناديد الذين دانت لهم الارض احقابا بعد احقاب :

لا حاضري بهج ولا دنياي ذات جنى رطيب
اغدو اروح كأنني شبح على ظل المغيب
وتصيح آلامي ويصـ ـرخ في دمي صوت النعيب
أأنا هنا ابن الشمس ايـ ـن الشمس من حقلي الجديب
أأنا حفيد النابهيـ ـن انا المرزأ بالذنوب ؟
اني غبار الامس انـ ـي منه كالرهج الخلوب

لكنه لا يبث ان يسترد الثقة والامل ، فيتصور اسرائيل على حقيقتها ، ضعيفة تستند الى الاستعمار وتستظهر به ، فهي هر يحكي انتفاخا صولة الاسد ، ويحيل مواءه زئيرا على شطآن قناة السويس:

فوق القناة الهر يز أر راصدا كل الدروب

ويقول :

عربدت في الحمى البغاث نسورا تتهادى فوق الرياض الفساح

وينطلق من هذه الثقة فيستثير عزمات قومه ليشبوها نارا تحرق ، ويبعثوها طوفانا يكتسح ويدمر :

وتوهجي كالجمر وانـ ـطلقي كطوفان غضوب

ويقول :

أمة العرب وللعرب يد رغم انف الغدر صبت من حديد
ضمدي الجرح وسيري للعلا شهبا ترصد اطماع العبيد
تستعيد الحق مهما ارجفوا وتزف النصر للشعب الطريد
صرخة الثأر اذا ما جلجلت فصروح البغي تهوى للصعيد

والعواطف في هذا الديوان تجمع الى صدقها وحرارتها انها نبيلة تبتغي للناس ان تقوم علاقاتهم على المحبة والاخاء والسلام والعدل ،

وتكره لهم ان يتعاملوا بشريعة الغاب ، فلا غرابة في ان حفل الديوان بنفثات من الشاعر المكلوم من العدوان على حقوق قومه ، الحزين للضعفاء الذين شردهم العدو المتربص تشريدا ترتجف له قلوب من لهم قلوب حتى وان كانوا ابعد الناس صلة بالعرب ، الاسيف لان العلم والذكاء والخبرة والمال والقوة صارت وسائل لتمكين الظلم وتاييد الطغيان . ولا غرابة في ان الشاعر لما ساء ظنه بأهل الارض ود لو انه يستطيع ان يطير الى القمر ، ليحيا هنالك بنجوة عن معترك الحق والباطل :

لو كنت رائد القمر
ولو وطئت ذلك الثرى العتيد
مخلفا في الارض
شوك الباس والقيود
في حقلنا المزروع بالآلام
بالحروب والصديد
لما قفلت عائدا الى البشر
لما رجعت للشقاء
للعناء والكدر
لمسرح الحواة ، للسرك ، لملعب الاكر
للناعقين بالسلام والسلام ينتحر

لهذا لم تفتنه حسان باريس بطراءة الانوثة ، وطلاوة الزينة ، ورخامة النبرة ، لانهن في نظره يبدين رقة تخفي وراءها مجانة او قسوة ، ولعله قد ربط في عقله الباطن بين هؤلاء وبين حضارة الغرب التي تموه بطلائها الزائف ما تجنه من كلف بالتخريب والتدمير والاعتداء على حقوق الضعفاء :

في باريس عرفت الجمره
وعرفت اللوعة والحسره
وكرهت الراء الملثوغة في وحشيه
تخفيها نظرة جنيه
تبديها همسة مأجوره

من بين شفاه مسعوره
فأنا شاعر
لا يكفيه رواء الصوره
يعشق فكره
ويرسل اشواق عقيده

والشاعر كلف بالصور ، يجسم بها عواطفه ، ويضخم مشاعره ، ويمثلها لقرائه . فنجده مثلا يصور الامه تمزقه ، فيعيش جسدا خاويا بغير مسرات وبغير انتاج ، كالنخلة التي يبست فلا لحاء لها ولا ثمر ، او كالنجمة الضالة الحيرى في السماء الفسيحة ، وليس له من سلوى الا شعره الذي يصرخ به في آذان لا تسمع ، وقلوب لا تعي ، انه يصرخ في مجتمع من الغربان ، في ميدان الضجر والملل والضيق:

اعيش في تمزقي انا اعيش
كنخلة عارية من اللحاء والثمر
كنجمة حائرة بين قناديل السماء
ترقب اشباح الفضاء
ذخيرتي النشيد في متاهة الحياة
واحيرة النشيد في شواطىء الضياع
في غابة الغربان في مسيرة السأم

ويصور عزلته بالفندق في باريس بأن الجدران تراءت له اسوارا تحتبسه ، وتحجب عن نظره النور والنار ، فاظلمت دخيلته ، فصار مثل القنديل المطفأ ، صار كالسكير الاعزل الذي ضل عنه النور :

وتراءيت جدار العزلة كالاسوار
تحجب عن عيني وميض النار
فكأني قنديل مطفأ
في حجرة اعشى اعزل سكير
نسيته قافلة النور

وهو يصور العدوان الاسرائيلي داء يقطع اوردة القلوب ، وافعى تنفث سما يسري في الاوصال :

عامان والداء العضا ل يؤج اوردة القلوب
عامان والداء العيا ء يفح كالصل الرهيب
يسري كسم ناقع ويفل اوتار الوجيب

وكثيرا ما تتلاحق صوره في ابيات تتوالى ، كقوله :

هللي يا مواكب الازمان واعزفي للعلا ارق المثاني
واعيدي للمجد ذكرى البطولا ت تخايلن في رؤى المهرجان
وانثري الورد حيث يستنبت الفخـ ـر وتسمو منارة الاوطان
رقرقي البشريات كالسلسل الصا فـ ـو كنور الربيع كالارجوان
حيث مثوى الخلود حيث الحضارا ت وحيث انتفاضة العقبان
اطلقيها ملاحنا ترقص الدنـ ـيا وطوفي بها على الندمان
واستعيدي النشيد عذبا سخيا يجتبيه الفؤاد لا الشفتان

ولقد يلجأ في تصويره الى نوع من الخيال محتاج الى تأويل بعيد ، كقوله لابنه :

يا فارسي الصغير
في ثوبك الفدائي البشير
شمس غد تفجر الصخور
وانت واثب هنا هناك تزرع الهدير

وذلك ان الهدير الذي يقصده لا يزرع ، بل يعمل او يصنع او يفجر . وقوله :

اعلو على وخز الجرا ح تشب من حمل وذيب

فان الجراح لا تشب ، وانما تشب النار او الحريق . وقوله :

رقرقي البشريات كالسلسل الصا فـ ـو كنور الربيع كالارجوان

فتشبيه البشري بالماء العذب الصافي وبنور الربيع جيد ، اما تشبيهها باللون الاحمر فلا وجه له .

والشاعر واضح الافكار صادقها ، لم يحاول ان يزيف على نفسه، او يموه على قومه ، بل كان صريحا مع نفسه ومع امته . لهذا جهر في العرب بان النكبة نكبتهم وحدهم ، وليست نكبة جار او ولي ، وبانهم وحدهم المكلفون ان يطهروا ديارهم من الدخيل الواغل ، وبايديهم هم شفاء نفوسهم وبلسم جراحهم :

الخطب خطبك انت لا خطب الصديق او القريب
لا في ديار الغرب او في الشرق برء للندوب

واعلن فيهم ان الحرب الظافرة هي التي تتوحد فيها جهودهم ، ويتفادى فيها رجالهم ، ويتآزر سلاحهم ، ولن يكون نصر بغير جهاد وبغير دماء وضحايا :

عدة الحرب وحدة تقدح العزم لنيل الاوطار اي اقتداح
والكماة الابطال ان ابصروا البا غي تنادوا لنجدة واكتساح
يخصب المجد من دماء الضحايا اي معنى للمجد دون اضاح ؟

وبين لهم ان الجهاد يتحقق بالسلاح والمال ، ويتحقق بالقول السديد الموجه وبالكلمة المخلصة الهادية :

اليراع الصلب والسيف اليمان في ذرى الامجاد لا يفترقان
رب قول هز شعبا فانبرى جيشه يطلق للحرب العنان
كفتا العزم مداد ودم في فؤاد يعربي العنفوان

وقد استرعى نظري في الشكل العام عدة سمات : الاولى ان المطالع مصرعة ، ما عدا مطلع قصيدته « مهد الاسراء » :

يا الهي ما حل بالقدس يفرى كل قلب ويصرع الاكبادا

الثانية ان الشاعر لم يلتزم في هذا الديوان وحدة الوزن ووحدة القافية ، فقد نوع القافية في القصيدة الواحدة ، كقوله :

بكيت وكم يجيش الدمع في العينين يا نوار
وحشرج صوتك المرنان مسفوحا لذكرى الدار
ولكن الصباح سيغمر الافاق بالانوار
سيضحك للربا اذار ويورق حقلنا المعطار
ثقي ان الاسود تمور تزأر تصنع الامجاد
وتمحو من سطور بلادنا اسطورة الاوغاد
دم الشهداء لا يلوي كنهر دافق التيار
يهدهد من ثرانا تربة الآباء بالازهار

الثالثة انه اكثر من الشعر الحر كثرة بلغت ثماني قصائد ومقطعات ، فما الذي سول له ان يجنح الى هذا الغرب الذي لم يستقم عوده بعد ؟ اخشى ان يكون قد اراد بهذا الصنيع ان يجاري حركة يصفها اصحابها والمروجون لها بانها تجديد لا مندوحة عنه ، واخشى ان يكون قد فعل ما فعله شاعر قال لي في حديث حول قصيدة له من الشعر الحر : لقد نظمتها من الشعر العمودي اولا ، فلماذا اردت ان تنشرها مجلة كذا جزاتها قطعا ، وفرقتها مزقا ، لترحب بها المجلة ، ولقد رحبت بها ونشرتها . ولكن الاستاذ حسن القرشي في غنى عن هذه المجاراة ان كان مجاريا ، وليس ممن يتحلقون الشعارات والدعاوى .

فلنقرأ من شعره الحر ، لنجد انه لو كان عموديا لجاء اوقع واجمل وابرع :

ويبقى الجرح يعوي الجرح
لكن تاكل الديدان
عواء الجرح
تنشر ظلها فوق السطوح
تغوص في الاعماق
وصوت الجرح جرحى لا يريم يلج كالتيار
سيبقى الجرح مفتوحا
يسد مرارة الاملاق

فلست اجد هنا ما اطرب له من نغم حلو واسلوب موسيقي تهش له نفسي . السمة الرابعة ان الشاعر يتانق في اختيار مفردات موحية يجيد وضعها في السياق الذي يقتضيها وتقتضيه . ولكنه قد يلحق بالكلمة صفة لا تعوزها لانها في غنية عنها ، كقوله :

مهرجان العرب حي المهرجان وانع اسرائيل للغرب الجبان
زرعوها فوق ارض مرة تلفظ العار وتجتث الهوان

فان الارض العربية لا توصف بانها مرة ، بل توصف بانها صلدة او ابية او عصية . وقوله :

انسي غبار الامس اني منه كالرهج الخلوب

فما معنى ان الغبار خلوب ؟ مع انه في الابيات التي سبقت هذا البيت وصف اللاجيء بانه يحيا في حاضر كئيب ، وبانه شبح اطل على المغيب ، وبانه مرزأ بالذنوب ، فالذي يلائم الغبار ان يوصف بانه هباء لا بانه خلوب . وقوله :

وتوهجي كالجمر وانـ ـطلقي كطوفان غضوب

فالطوفان لا يعوزه هذا الوصف . وقوله :

والثار ثارك ضجت ال اكفان للضيم المعيب

فان الضيم لا يكون الا معيبا ، بل هو اشنع من العيب .

اما بعد ، فهذا شاعر احب الشعر ، واخلص له ، وغرس في بستانه الريحان والورد ، فمنحته ربة الشعر ودها ، وسكبت على قلمه فنها ، وامدته ببدائع زخرف بها عواطفه الفردية وعواطفه الاجتماعية ، فجاء شعره الغزل رائعا ، وجاء شعره القومي بارعا ، وان الشعر واحباء الادب ليرتقبون منه مزيدا يغذي قلوبهم وعقولهم واذواقهم الظامئة الى كل جيد من المقال وكل رائع من البيان .

القاهرة

احمد محمد الحوفي
رئيس قسم الدراسات الادبية
بكلية دار العلوم

حياة لورنس السرية

كتاب من تاليف فيليب نايتلي وكولن سمبسون

The Secret Lives of Lawrence of Arabia
by Phillip Knightly & Colin Simpson

على الرغم من مرور اربعة وثلاثين عاما على مصرع T.E لورنس ، وعلى الرغم من ان اكثر من ثلاثين كتابا قد نشرت عن حياته حتى الان ــ فما يزال هناك كتاب يعتقدون ان مجال البحث والتقصي في حياة لورنس ما يزال مفتوحا ، وما يزال هناك قراء تستهويهم مطالعة المزيد من خفايا حياة هذا الرجل الفذ . ويعجب المرء حقا كيف طغت شهرة لورنس في بريطانيا على شهرة الالاف من رجالها الافذاذ ــ عسكريين وسياسيين على السواء ــ وكيف ان شخصية لورنس ما تزال مدار الاهتمام من قبل جماهير القراء الانكليز ، لا يوازيها في ذلك الا شخصية ونستون تشرشل ، كما يقول المؤلفان . والواقع ان جميع الذين كتبوا عن لورنس اخفقوا في تقديم سبب واضح ومعقول ومقبول لاستمرار شهرته . والارجح عندي ان يكون انضمامه لقوة الطيران برتبة نفر عادي بعد ان ركل بقدمه المناصب العالية ، ثم مصرعه المفجع بعد ذلك : من أهم أسباب بقاء الشهرة التي احرزها اثناء الحرب العالمية الاولى . والارجح ايضا ان لورنس كان خليقا ان يفقد جانبا كبيرا من شهرته بمرور الزمن لو انه استمر يعمل في سلك الوظائف التقليدية او لو انه تزوج وعاش حتى سن الشيخوخة .

والكتب التي وضعت عن لورنس يمكن أن تصنف تحت عنوانين متعارضين : الكتب التي تمجد اعماله وترفع من شانه ويدخل في عدادها مؤلفات لويل توماس ولدل هارت وروبرت جريفز وانتوني ناتنج، والكتب التي تضع علامات السؤال والاستفهام المتعددة تجاه سيرة حياته ويدخل في عدادها مؤلفي الدنجتون وكاتب هذه المقالة ، وهذا الكتاب الذي نعرض له اليوم .

يقوم البناء الرئيسي لهذا الكتاب على نظريتين اساسيتين جعلهما المؤلفان محورا ثابتا تدور حوله الاحداث في حياة لورانس . اما النظرية الاولى فهي ان لورنس كان اكثر من ضابط عادي في الجيش البريطاني، بينما تقول النظرية الثانية ان لورنس اخضع نفسه متطوعا مختارا طوال اثني عشر عاما لعمليات جلد قاسية بالسياط نتيجة لقيامه بواجبه ابان الحرب .

وفيما يتعلق بالقول ان لورنس كان اكثر من ضابط عادي في الجيش ، يسوق المؤلفان سلسلة من الادلة والشواهد يحاولان من خلالها تدعيم نظريتهما بأن لورنس كان عميلا سريا من عملاء الاستخبارات القلائل الذين ترتبط اعمالهم بالخطط السياسية الرئيسية في اعقاب العصر الفيكتوري مجموعة من الرجال الوطنيين الذين يعتقدون ان من واجبهم القومي العمل على توسيع ممتلكات الامبراطورية البريطانية وبسط سلطانها ونفوذها . وقد أطلق اعضاء هذه المجموعة على أنفسهم اسم (الطاولة المستديرة) وكانوا يصدرون مجلة بهذا الاسم . ومن جملة الشروط التي ربطوا أنفسهم بها ان يتكتموا على نشاطاتهم ولا يبوحوا بها لاحد خارج نطاق الجهات الرسمية المختصة . ويرى المؤلفان ان اعضاء تلك المجموعة كانوا يتمتعون بنفوذ قوي من وراء الستار على الرغم من ان اكثرهم لم يكونوا من رجال الحكم والسياسة .

ويرى المؤلفان ان الاستاذ هوجارث ـ وهو مستشرق ومؤلف وعالم آثار مرموق ـ كان عضوا بارزا في جماعة (الطاولة المستديرة) وانه عرف لورنس عندما كان هذا طالبا في اوكسفورد ، فتوسم فيه النباهة والالمعية واخذ يرعاه ويحيطه ويسدد خطواته : فهو الذي اشار عليه بالسفر الى سورية لكتابة رسالته الجامعية ، وهو الذي ضمه الى بعثة الحفريات الاثرية في كركميش وهو الذي شق الطريق له عند نشوب الحرب للعمل ضابطا في الاستخبارات العسكرية ثم عمل على ارساله الى القاهرة حيث يمكن الاستفادة من خبرته في بلاد العرب ، ثم ضمه الى (المكتب العربي) الذي ترأسه هوجارث نفسه . بل يمضي المؤلفان الى القول انه لولا هوجارث لما كان هناك ـ على اثبات نظريتهما ببراهين عديدة من جملتها تلك البرقية التي بعث بها رئيس هيئة الاركان الامبراطورية في اذار ١٩١٦ يعلن فيها تكليف لورنس شخصيا بالاتصال بخليل باشا قائد الجيش التركي الذي كان يحاصر جيش الجنرال تاونسند في كوت الامارة بقصد ان يقدم له رشوة مليون جنيه ذهبي لفك الحصار . ومن جملة البراهين منح لورانس مسؤولية انفاق نصف مليون جنيه ذهبا اثناء الثورة العربية ينفقها حسبما يراه ملائما . ومن جملتها ايضا انه عندما قررت الحكومة البريطانية توجيه الدعوة الى الملك حسين كي ينتدب ممثلا له في مداولات مؤتمر السلم ـ صدرت الدعوة من لندن باسم لورنس مباشرة ومن فوق رؤوس كبار القادة والمسؤولين البريطانيين في مصر وسورية وفلسطين ، مثل اللنبي وونجت وكلايتون . وفي رأيي ان المؤلفين بالغا في وصف تأثير هوجارث في توجيه حياة لورنس . اما صداقة لورنس للعرب التي انكرها المؤلفان فأمر يصعب الجزم فيه برأي قاطع ، والحقيقة أنه على الرغم من وجود شواهد عديدة تدل على ان لورنس لم يكن صديقا صدوقا للعرب ، فهناك بالمقابل شواهد عديدة تدل على صداقته للعرب : هناك كتابه أعمدة الحكمة السبعة الذي خلد فيه الثورة العربية وقدم من خلاله للعالم الغربي صورة رائعة لنضال العرب في سبيل الاستقلال والحرية ، وهناك دفاعه عن قضية العرب ومجاهرته المتحمسة بضرورة الوفاء بالعهود والوعود التي أعطيت للعرب .

اما تعليل الدوافع الكامنة وراء عملية الجلد بالسياط ، فيرده المؤلفان الى حادث يعتقدان انه وقع له اثناء الحرب . وهما ينفيان عنه اي شذوذ قبل بدء الحرب ، ولكنهما يبحثان طويلا في التناقضات التي أحاطت بحكاية ما وقع له في درعا على يد القائد التركي : فقد روى لورنس نفسه هذه الحكاية للسيدة شارلوت شو ثم قال لزوجها برنارد شو انها غير صحيحة . ولم يستطع المؤلفان التوصل الى رأي جازم حيال هذه الحكاية ، ولكنهما يريان ان حادثا لا بد ان يكون قد وقع له وهز كيانه النفسي ورج اعصابه واودى براحة باله . ومما زاد وضعه النفسي سوءا انه ظل يستبد بارادته ويضغط على اعصابه حتى انتهت الحرب وانتهى مؤتمر السلم وانتهى مؤتمر القاهرة الذي عقده ونستون تشرشل ، ولعب لورنس دوره البارز النشيط في هذا كله ، ثم تخلل ذلك الجهد الكبير الذي بذله في كتابه (اعمدة الحكمة السبعة) . وعندما فرغ من الكتاب كانت سيطرته على ارادته قد بلغت نهايتها فافلت الزمام من يديه وتزعزعت اعماق نفسه وبلغ حافة الجنون . وهنا لم يجد لورنس سبيلا للشفاء من ادوائه الا بترك المناصب والمسؤوليات والانضمام الى قوة الطيران جنديا عاديا مغمورا يؤدي ما يؤمر به من عمل . ولم يكن ذلك كافيا فاقتنع شابا من غمار الناس يدعى جون بروس بأن يجلده بين الفينة والفينة على ظهره العاري بالسياط حتى ينز الدم من جلده . وهكذا اخذت جراح النفس تلتئم رويدا رويدا واخذ لورنس يسترد عافية اعصابه مع مرور الاعوام . وعلى حد قول بروس نفسه « لقد ساعدته على استعادة سلامة عقله وطمأنينته واحترامه لذاته » .

من هنا يرى المؤلفان ان تضحية لورنس في سبيل بلاده كانت أعظم بكثير مما كان معروفا عنه قبل اليوم ، وانه تحمل ما تحمل من أذى في اعماق نفسه كي يؤدي واجبه لوطنه كاملا غير منقوص .

واخيرا : لا شك ان المؤلفين اعتمدا على وثائق عديدة لم تنشر قبل اليوم ، وهذه الوثائق تلقي اضواء ساطعة على جوانب تتعلق بالقضية العربية وخفايا السياسة التي عولجت قضايا العرب من خلالها . لهذا كله لا بد ان يجد المهتمون بلورنس كشخصية مشهورة وكذلك المهتمون بالتاريخ العربي الحديث ـ لا بد ان يجد هؤلاء وهؤلاء في الكتاب مادة جديدة ومثيرة : سواء وافقوا المؤلفين على استنتاجاتهما ام لم يوافقوا .

عمان ـ الاردن　　　　سليمان موسى

●

خطباء صنعوا التاريخ

تأليف انور أحمد ـ ٢٤٤ صفحة ـ نشر مكتبة الانجلو ـ المطبعة الفنية الحديثة بالقاهرة

اود ان ابدأ الحديث عن هذا الكتاب بالفقرة التي أوردها المؤلف وهو يؤرخ لحياة مصطفى كامل ، اذ يقول : « مهما حاولنا ان ننقل شيئا من حياة مصطفى كامل الخطابية فلن نستطيع أن ننقل للقارىء تلك الحياة الزاخرة التي كانت تنبعث منها وهو يلقيها امام جمهوره ، ولسوف تظل مجرد كلمات جامدة على الورق بعد ان فقدت تلك النبرات الرنانة التي كانت تبهر ، والنغمات الحلوة التي كانت تسحر ، والنظرات التي كانت تشع نارا ونورا ، وبعد ان سقط حجاب الزمن بيننا وبين الخطيب ومنصته ، والزعيم وحماسته ، ولم يبق لنا الا

النصوص تتراءى من خلال سطورها اطياف لمظاهر عظمة الخطيب » .

هذه الفقرة تضع في يدنا مفتاحا للجولة التي نريدها في انحاء هذا الكتاب ، فالترجمة لحياة الخطيب بالذات تختلف عن الترجمة للشخصيات الاخرى ، لان الترجمة لحياة الخطيب تفتقد عنصر التشخيص ، فشخصية الخطيب تعتمد اول ما تعتمد على الصوت ، والحركة ، والنبرة ، والاشارة ، والتنغيم ، بالاسراع والتمهل ، والجهر، والهمس ، التي تشكل في النهاية - الى جانب النص الخطابي - عملية اقناع الجماهير ، والتأثير فيها ، واستمالتها الى رأيه ، او انفعالها بعواطفه ، واستجابتها في النهاية لما يلقيه اليها .

وهذه عناصر لا يمكن ان يصورها المترجم لحياة الخطيب مهما أوتي من قوة التعبير ورقة التصوير ، لان اصوات الخطباء كبصمات الاصابع لا يمكن ان تتكرر .

ومهما اورد المترجم من النصوص الخطابية ، ومهما حاول أن يبرز فيها ما اوتي الخطيب من بلاغة العبارة ، وانتقاء الاساليب ، واختيار الكلم ، فان النصوص تبقى مجرد نصوص ادبية ، قد تكون - بعد تجريدها من شخصية الخطيب - نصوصا من الدرجة الثانية او الثالثة ، على اكثر من ذلك ، لانها فقدت اهم مقومات الخطبة ، وهي الصوت والنبرة وكل عناصر المشافهة .

وقد يكون هذا هو الذي جعل المؤلف يضيف شيئا الى عنوان الكتاب غير ترجمة حياة هؤلاء الخطباء ، وهو صناعة التاريخ ، فلم يقتصر على الترجمة لهؤلاء الخطباء كمجرد خطباء ، ولكنه القى على اكتافهم عبء المشاركة في صناعة التاريخ ولو من خلال مواهبهم كخطباء ، فوضع في يد الكثيرين منهم صولجان الحكم ليستطيعوا ان يغيروا مصائر اممهم ، ويشكلوا الاحداث الكبار في عصرهم ، ولهذا اختار شخصياته من بين الخطباء الذين كان لهم دور بارز في السياسة او في الحرب .

والقاريء يحس من مجرد استعراض الشخصيات التي اختارها المؤلف بمدى الاعزاز والتقدير الذي احاط به المؤلف شخصياته .

ولقد جرى المؤلف في عرض شخصياته على الطريقة التقليدية في التراجم ، فهو يتحدث عن النشأة الاولى للشخصية ، ثم البيئة الاجتماعية والسياسية والعقائدية التي انبتت الشخصية ، ثم يتحدث عن المؤثرات الادبية والفنية ، ثم البيئة التي صنعها الخطيب لنفسه ، ثم العوامل التي دفعته الى غمار السياسة او الحرب وكيف كانت قوة الارادة ، والاصرار على النجاح من بين العوامل التي ابرزت هؤلاء او اكثرهم من القاع الى القمة .

ولقد استبان ذلك من تاريخ حياة ديموستين ، والحجاج ، وميرابو ، ولكن الذي نلاحظه انهم اتخذوا الخطابة وسيلة للدخول من ابواب التاريخ ، ليصبحوا زعماء وحكاما او رجال دولة .

والمؤلف حين يقول في المقدمة ان هذا الكتاب ليس ترجمة لحياة هؤلاء الخطباء يمحص نفسه من الاجابة عن سؤالين : لماذا اختار خطيبا بالذات ؟ ثم لماذا اورد من وقائع حياة الخطيب هذه الاحداث دون غيرها ، لكن هذا لا يدع الكتاب دون منهج .

ان المؤلف يذكرنا بفن من فنون القول كان في يوم ما ، وحتى الجيل السابق ابرز هذه الفنون ، وهو فن الخطابة ، قبل ان تنتشر وسائل الاعلام السمعية والبصرية ، يوم ان كان ابرز ما يرشح الفرد للزعامة ان يكون خطيبا بارزا في مجال السياسة ،او محاميا مفوها في مجال القضاء .

واود ان اذكر هنا ان المؤلف الاستاذ انور احمد بقية صالحة من هؤلاء الخطباء الشباب ، يملك الصوت الفني المتنوع ، ويملك سلاسة العبارة وقوتها ، ويملك القدرة الفائقة على الاقناع ، مما رشحه لكبار المناصب ، ورشحه ايضا ليمثل دور الزعيم مصطفى كامل في الفيلم الذي خرج باسمه منذ سنوات .

والكتاب الذي نعرضه اليوم مائدة طيبة يستضيف المؤلف عليها اصدقاءه الاعزاء عبر حدود التاريخ ، يجمع بينهم اعجاب المؤلف وحفاوته بهم كخطباء اولا ، وكرجال دولة ثانيا .

والمؤلف يعرض لشخصياته عرضا ذكيا ، حين يضع يده على نبض كل شخصية ، ويبرز دقائق مكوناتها .

ففي حديثه عن ديموستين يبين بوضوح كيف استطاع ان يتغلب على عيوبه الخلقية من ضعف الصوت ، وقصر النفس ، ولثغة اللسان، وارتباك الاشارات ، ذلك لانه اراد ان يكون خطيبا ، فصنع من ديموستين العيي ديموستين العظيم بقوة الارادة ، وبالصبر ، وبالتمرس .

وعندما يتحدث عن الامام علي يبرز العوامل التي تجمعت له ، من الجراة والصراحة والوضوح ، وحضور البديهة ، والتفقه في الدين ، والنسب الهاشمي الصريح ، مما جعل منه خطيبا عظيما ، ولكن كل هذا كان محسوبا عليه ، فجعل منه سياسيا احاطت به كل الوان القلاقل وعدم الاستقرار ، وعلى العكس من ذلك كان زياد بن ابيه ، والحجاج بن يوسف اللذان كان سيفهما اسبق من لسانيهما .

وحديثه عن عبد الله بن الزبير لم يقنعنا بانه اكثر من محارب يائس احدق به اعداء شرسون ، وكانت أمه اسماء في جوارها معه أخطب منه وهو يستحث قوما متخاذلين ويحرضهم على الحرب .

ويمضي المؤلف في عرض شخصياته كميرابو ، خطيب الثورة الفرنسية المعتدل الذي حمى الثورة في بداية عهدها من التهور ، ووليم بت الكبير الذي قضى دورة برلمانية كاملة لم ينطق بكلمة واحدة حتى حلت عقدة لسانه فتدفق كالسيل المدمدم ، حتى اصبح خطيب البرلمان الاول ، وخرج بانجلترا من ذلة الهزيمة الى عزة الانتصار ، ووليم بت الصغير الذي انتقل من منبر الخطابة الى رياسة الوزارة قبل ان يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، دون استناد الى حزب او فئة معينة ، وذلك في انجلترا بلد التقاليد .

ومن الخطباء العرب المعاصرين عبد الله النديم الذي خرج كالشرارة من بين الاحتكاكات الشعبية ليكون خطيب الثورة العرابية ، ثم يجيء مصطفى كامل في الاونة الحاسمة التي كانت تتطلب صوته ، وتتطلب جراته وشجاعته ، وممارسته للنضال من اجل الوطن في كل ميادين النضال ، مما اجبر المستعمر على ان يغير اساليبه ، لقد كان شعار مصطفى كامل ان يوقظ في مصر الهرمة مصر الفتاة ، ولقد صنع ذلك ، حتى لم يجيء عام ١٩١٩ حتى كان الشعب المناضل قد افرز اسلحته للنضال الفكري والسياسي ، فكان وجود جمال الدين الافغاني، والتقاؤه بالشيخ محمد عبده قد أنجب خطيبا ثائرا وفدائيا جديدا هو سعد زغلول الذي ركب موجة الثورة الهائجة ، التي هبت في مصر ، ولم تهدأ الا بعد ان هزت قواعد الاستعمار .

ويورد المؤلف نبذة عن الخطباء الذين سماهم خطباء الحروب ، امثال خالد بن الوليد ، وطارق بن زياد ، والقديس برنار ، ومونتجومري ، وونستون تشرشل ، وادولف هتلر ، ثم يختم المؤلف كتابه بالحديث عن نابليون باعتباره خطيبا من خطباء الحروب .

والكتاب في النهاية يطرق بابا جديدا في التراجم خلت منه المكتبة العربية او كادت تخلو ، فان تراجم الخطباء في رفوف المكتبة العربية قل أن يفرد له مؤلف بذاته .

والكتاب يمتاز بتلوين شخصياته بالوان ممتعة تحبب القاريء الى هذه الشخصيات ، وتنقل اليه نبضاتهم ومشاعرهم وتضعه في اطار طموحهم ، وتثير فيه عواطف الحب او الاشفاق او النفور من تحركاتهم على مسرح الاحداث في زمنهم ، كما تنقل الى القاريء هذه الازمنة والامكنة بطريقة سلسة بارعة .

القاهرة **رضوان ابراهيم**